المراسلات المتبادلة
بين بابوات روما وسلاطين مصر من بني أيوب
(١١٨٣ - ١٢٤٥م / ٥٧٨ - ٦٤٣هـ)

الدكتور

حسين محمد عطية

كلية الآداب - جامعة طنطا

تمهيـــد :

تعتبر الحروب الصليبية من أهم مجالات الالتقاء بين الشرق الأدنى الإسلامى والغرب المسيحى خلال الحقبة الوسيطة من التاريخ . وإذا كان صليبيو الحملة الأولى — بعد إقامتهم لركائز الغرب فى بلاد الشام — قد وجدوا أنفسهم فى مجتمع غريب عليهم وهم غرباء عنه ، فإنه وسط مشاعر العداء المتبادل ، لم يكن هناك ما هو أصعب من التقارب . وكان أن فقد الغزاة لغة المفاوضات[1] . وكانت انتصارات الفرنج ، وما كان يعقبها من قسوة وعنف[2] ، هى وسيلتهم للتعبير عن مشاعرهم وقوتهم[3] . ولقد فرضت انتصاراتهم الباهمة عن تشتت كلمة مسلمى الشرق الأدنى ، وانشغال بعضهم ببعض ، ما قد ساد من لغة

---

(١) J.F. Michaud, Histoire de Croisades, Paris, 1970, p. 581.

(٢) يكفى للدلالة على ما ارتكبه الفرنج من جرائم ، عند استيلائهم على مدينة أنطاكية ثم على مدينة بيت المقدس ، ما ذكره من اشترك من مؤرخيهم فى هذه الوقائع . فقد ذكر كاتب الجستا المجهول أن الفرنج حين دخلوا مدينة أنطاكية « قتلوا من صادفوه بها من الأتراك والمسلمين » . ويقرر الكاتب نفسه أن المذبحة التى قام بها بنو بلدته حين دخلوا مدينة بيت المقدس « ما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه » . وحتى الذين احتموا بالمسجد الأقصى من المسلمين لم ينجوا من سيوف الصليبيين الذين دخلوهم بتدخله . وحين دخله المؤرخ رايموند اجيل لم يكن من السهل عليه أن يتلمس طريقه « وسط الجثث والدماء » التى بلغت ركبتيه . أنظر : المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة بحجاج بيت المقدس ، ترجمة وتعليق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٥٨ م ، ص ٧٠ ، ١٢٠ . راجع أيضا :

Raymond d'Aguilers, Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem, in R.H.C.-H.occ., vol 4, p. 298.

(٣) عندما وصلت سفارة فاطمية إلى المعسكر الصليبى خارج أسوار أنطاكية فى أوائل عام ١٠٩٨ م/٤٩١ هـ ، وبقيت هناك لمدة أسبوع ، خيل لفرسان الفرنج حين انجلاء الغبار التى أقام فيها رسل الأفضل برؤوس لقتلى من مسلمى حلب ، بعد أن دحر الفرنج قوات رضوان بن تتش ملك حلب الذى خرج لنجدة أنطاكية فى ٩ فبراير/٤ ربيع أول من نفس العام . أنظر : المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ٥٩ . راجع أيضا ترجمة خطاب سيفن كوست بلوا يشاير الى زوجه أديلا والذى حرره من المعسكر الصليبى خارج أسوار أنطاكية فى ٢٩ مارس ١٠٩٨ م/٢١ ربيع ثان ٤٩١ هـ . انظر : حسن عطية : إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالدول الإسلامية المجاورة (١٠٩٨ــ ١١٧٦ م/٤٩٢ــ٥٧٢ هـ) ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، الاسكندرية ١٩٨١ م ، ملحق رقم (١) ص ٢٨٦ــ٢٩٣ .

للمفاوضات[1] . فلم تكن هناك حاجة بالصليبيين إلى التخلى عن التظاهر بالقوة ، طالما لم تتوحد الجبهة الإسلامية أمامهم . واستمر هذا الوضع حتى عهد عماد الدين زنكي ونور الدين محمود من بعده ، حيث لم تكن القوى الإسلامية فى بلاد الشام تخضع طواعية للزنكيين[2] بالرغم من اعتدال ميزان القوى فى الصراع بين الصليبيين والمسلمين فى بلاد الشام بما حققه نور الدين محمود من انجازات . فقد اجتذب التأثير البيزنطى الصليبيين ، الشعور بدنو الخطر الإسلامى[3] . وحين أصبحت أملاك الزنكيين فى بلاد الشام فى حوزة صلاح الدين الأيوبى ، وخضع له أمراء الجزيرة ، ووالاه سلاجقة الروم ، بعد أن أصبحت مصر بمواردها — التى لم تكن قد استنفدت فى الصراع الصليبى الإسلامى — هى قاعدته ، وأصبحت أملاكه التى يحكمها رأى واحد ، تحيط بمعاقل الصليبيين التى تخضع لآراء شتى[4] ، أصبح صلاح الدين رجل الساعة وسيد

(١) Albert d'Aix, Liber Christianae Expeditionis, in R.H.C.-H.occ., vol. 4, p. 382.

(٢) كانت سياسة أنابكة دمشق من البيت البورى ، هى التحالف مع مملكة بيت المقدس الصليبية ، لتحييد الموقف فى بلاد الشام ، وشل حركة عماد الدين زنكى ومن بعده نور الدين محمود ، لحفظ ميزان القوى أمام ازدياد نفوذ الزنكيين فى حلب ، وإدراك أنابكة دمشق أن مدينتهم ما فتئت دائما موضع أطماع زنكى ثم نور الدين . أنظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، جزءان ، القاهرة ١٩٧٥ م ، جـ ٢ ، ص ٦٠٠ ، ٦٦٦ ؛ محمد محمد مرسى الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ، الأسكندرية ١٩٧١ م ، ص ٣٢٩—٣٣٤ ، ٣٥٩ وما بعدها

(٣) كان نور الدين يضع فى اعتباره اهتمام الأمبراطور البيزنطى مانويل كومنين (١١٤٣—١١٨٠ م) بأحوال الغرب فى بلاد الشام ليظهر بمظهر الحامى للكيان الصليبى تعويضا لفشل سياسته فى غرب أوروبا . وهذا ما جعل نور الدين يتجنب القيام بعمل كبير ضد الفرنج من شأنه أن يثير حفيظة الأمبراطور . وهذا ما أفاده الفرنج — خاصة فى أنطاكية — من التحالف المقرون بما يشبه الخضوع لمانويل . أنظر : حسين عطية : امارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (١٠٧١—١٢٦٨ م) ، الأسكندرية ١٩٨٩ ، ص ١٧٠ وما بعدها .

(٤) يموت الملك عمورى الأول (١١٦٣—١١٧٤ م) انقسم الفرنج فى مملكة بيت المقدس إلى حزبين متصارعين : الأول هو حزب الملك ويضم ابنه بولدوين الرابع (١١٧٤—١١٨٥ م) والملكة الأم أجنيس Agnes ، وشقيقها جوسلين الثالث كونتاى والبطريرك هرقل وفرسان الداوية . والحزب الثانى : هو حزب البارونات ، ويقوده ريموند الثالث كونت طرابلس (١١٥٢—١١٨٧ م) بتأييد من بوهيمند الثالث أمير أنطاكية (١١٦٣—١٢٠١ م) ومعظم المملكة من أسرة إبلين فى الرملة وصيدا وقيسارية . أنظر :

William of Tyre, A History of Deeds done beyond the Sea, 2 vols, trans. by E. Babcock and A.C. Krey, New York, 1943, vol. 2, pp. 492-93, 501ff. (cf. also, J. Riley-Smith, Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem, (1174-1277), London, 1973, pp. 104-105

الموقف . أوبدا وكأنه سيطيح بما توصل اليه الصليبيون من نمط للحياة Modus Vivendi فى بلاد الشام[1] . وتكدست سجونه بأعداد كبيرة من أسرى الصليبيين ، ذلك ، فى الوقت الذى غرقت فيه أوروبا فى مشاكلها التى شغلتها عن ركائزها فى الشرق الأدنى[2] الأمر الذى لم يمكّن بابوية روما من أن تدعو لحملة صليبية جديدة . واكتفى الجميع بجمع المعونات المادية لإرسالها إلى الصليبيين فى بلاد الشام ، لمواجهة خطر تأكد الجميع من وجوده ممثلا فى شخص صلاح الدين ، حتى اقترن ما كان يجمعه غرب أوروبا من معونات باسم الرجل[3] . ولما لم تكن الأموال هى كل ما يحتاجه الفرنج فى بلاد الشام ، فقد سارع حكام الغرب[4] ، والبابوية كذلك ، الى اتباع أسلوب المفاوضات — لعجزهم عن استخدام القوة المسلحة — مع بنى أيوب .

فلم تر بابوية روما أية غضاضة فى الاتصال بحكام مصر والشام الأيوبيين ، لترى نموذجا فريدا من نماذج دبلوماسية الحروب الصليبية ، وقد اتسمت لهجة التفاوض من جانب بابوات روما بالاعتدال . فالبابوية ، منذ عهد صلاح الدين وحتى نهاية الدولة الأيوبية فى مصر ، وبالرغم من مساعيها لإيفاد الحملات الصليبية المتتابعة ، كانت تفاوض — فيما يخص الكيان الصليبى فى بلاد

---

(1) Radulf Niger, Cronica Universali, in M.G.G. ss., vol. 27, p. 315.

(٢) شغلت أوروبا كلها بالصراع بين الامبراطور فريدريك بربروسا والبابوية ، كما قام الصراع بين هنرى الثانى ملك انجلترا وملوك فرنسا لويس السابع ثم فيليب أوجسطس من بعده ، الى جانب خلافات هنرى مع أبنائه فى فرنسا وانجلترا وأمرائه وملك اسكتلندا . أنظر :

R.H.C. Davis, A History of Medieval Europe, from Constantine to Saint Louis, London, 1964, pp. 324-326; S. Runciman, A History of the Crusades, 3 vols, Cambridge, 1968, vol. 3, pp.6 f John L. La Monte, The World of the Middle Ages, New York 1949, pp. 267-274, 309-329.

(٣) وهى الضريبة التى فرضت فى فرنسا وانجلترا وعرفت بعشر صلاح الدين . أنظر :

Benedict of Petersborough, Gesta Regis Henrici Secundi, ed. W. Stubbs, in R.S., London 1867, vol. 2, pp. 30-32.

(٤) ما تم من دبلوماسية بين حكام أوروبا من ملوك وأباطرة وبين حكام مصر والشام من بنى أيوب ، ودراسة ما تم من مراسلات بين الطرفين ، هو موضوع بحث مستقل بذاته فى طريقنا الى الانتهاء منه قريبا ان شاء الله . ونفس الأمر ينطبق على ما تم بين بابوات روما وحكام مصر والشرق الأدنى الإسلامى من مراسلات لا تتعلق بالعلاقات السياسية بين المسلمين والصليبيين .

الشام — من أجل البقاء وليس من منطلق القوة . لذلك لم ير بابوات روما أيضا أية غضاضة فى استعطافهم لبنى أيوب فى بعض الأحيان .

ومهمة هذا البحث ، هى إلقاء الضوء على المراسلات المتبادلة بين بابوات روما وبين حكام مصر والشام الأيوبيين . وترجع أهمية دراسة هذه المراسلات الى أنها تعتمد على الوثائق التى تعتبر مصدر الأصالة الأول لكل بحث تاريخى [1] . هذا الى جانب أنها تكشف عن جانب هام من العلاقات بين القوى الصليبية والمسلمين إبان فترة هامة تتعلق بتغير موازين القوى فى الصراع بين الطرفين المتحاربين ، وتعطى صورة واضحة عن طبيعة هذه العلاقات ، وعن روح الحروب الصليبية نفسها . فضلا عن أن هذه الوثائق لم تتمتع باهتمام غالبية مؤرخى الحروب الصليبية الحديثين ، الأمر الذى يدفع إلى الاهتمام بمعالجة نصوص هذه الوثائق ودراستها والاستفادة من المعلومات التاريخية التى وردت فى ثناياها .

ولما كان من المتعذر الوقوف على أصول هذه الوثائق ، أو الإطلاع عليها فى أرشيفات الفاتيكان ، فيمكن إدراك مدى الصعوبة التى تحيط بتناول مثل هذا البحث . ويزيد من تلك الصعوبة أن هذه الوثائق ، لم تتضمنها صفحات كتب مؤرخى العصر الأيوبى ، التى ضمت الكثير من المكاتبات التى تم تبادلها بين سلاطين الدولة الأيوبية ، وغيرهم من حكام الشرق الأدنى الإسلامى . وبالرغم من وجود ديوان للانشاء فى الدولة الأيوبية ، أخرج لنا الكثير من وثائق هذه الدولة [2] ، إلا أن ما تم تبادله من مراسلات بين بنى أيوب وبين حكام غرب

---

(١) محمد ماهر حماده : الوثائق السياسية والادارية للعهود العاطسه والأتابكية والأيوبية ، دراسة ونصوص (ط ٢) . بيروت ١٩٨٥ ، ص ١٠ .

(٢) خرج القاضى الفاضل عند لرحى اليسانى فى ديوان الإنشاء العاطسى فى عهد الخليفة العاضد وأسند إليه صلاح الدين كتابة الإنشاء . ولأن القاضى الفاضل لم يكن ليتمكن من ملازمة صلاح الدين بصوره دائمة ، فقد عين العماد الأصفهانى كاتبا فى نفس الديوان ليلازم السلطان فى رحلاته . ولأن العماد يجيد الكتابة بالفارسية الى جانب العربية . لذا تولى كتابة الإنشاء فى عهد الصالح نجم الدين أيوب الكاتب بهاء الدين زهير . أنظر : العماد الأصفهانى : البرق الشامى ، جـ ٣ ، جـ ٤ ، تحقيق مصطفى الحيارى ، الأردن ١٩٨٧ ، جـ ٣ ، مقدمة المحقق ، ص ١٥ ، المقريزى (تقى الدين) : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول فى ٣ أقسام ، تحقيق محمد مصطفى زياده ، القاهرة ١٩٣٤- ١٩٤٢ ، جـ ١ ، قسم ١ ، حاشيه رقم (١) التى تقع فى ص ٢٨٥

أوروبا وبابوات روما ، لم تحفظه مصنفات مؤرخى هذه الفترة من المسلمين ، ولا حتى أعمال مؤرخى العصر المملوكى[1] .

وإذا كان بعض المؤرخين المسلمين يشيرون أحيانا فى كتاباتهم إلى العلاقات بين حكام الشرق الأدنى الإسلامى من بنى أيوب وحكام غرب أوروبا أو أباطرة الدولة البيزنطية ، فإن الأمر لا يتعدى الإشارة إلى حضور « رسل الفرنج » ، أو « رسل صاحب القسطنطينية » إلى السلطان الأيوبى ، ضمن من وصلوا إلى بلاطه فى وقت من الأوقات ، دون ذكر لسبب حضور هؤلاء الرسل — فى أغلب الأحيان — أو المهمة المكلفين بها . وهكذا بقيت نصوص المراسلات التى تمت بين الطرفين بعيدا عن متناول الباحثين . وهنا يبرز تساؤل يفرض نفسه : لماذا لم تتضمن أعمال هؤلاء المؤرخين ، معاصرين كانوا أم لاحقين ، مثل هذه المراسلات ، كما تضمنت المراسلات المتبادلة بين السلاطين الأيوبيين وبين غيرهم من حكام الشرق الأدنى الإسلامى ، وكلها من إنشاء القاضى الفاضل أو العماد الأصفهانى كتبة صلاح الدين ومن خلفه فى إدارة شئون الدولة الأيوبية؟. وفى الحقيقة ، لم نعثر على إجابة شافية لهذا التساؤل إلا بين ثنايا الخطاب الذى بعث به صلاح الدين نفسه إلى البابا لوكيوس الثالث Lucius III (١١٨١—١١٨٣ م)[2] ، حيث يذكر صلاح الدين للبابا أن مبعوثه — أى مبعوث البابا — قد مثل أمام صلاح الدين سرا "et ante nos in secreta camera venire fecimus"[3] .

---

(١) انحصرت أعمال مؤرخى الدولة الأيوبية والمملوكية على تسجيل مراسلات بنى أيوب مع حكام الشرق الأدنى الإسلامى ، بدلا من أن تذهب صبح الأعشى فى صناعة الانشا الذى وضعه أبو العباس القلقشندى يزخر بعدد وافر من مراسلات الأيوبيين مع حكام بعض المدن التجارية الأوروبية مثل جنوا وبيزا والبندقية وغيرها ، فانه لم يورد لنا ما ثم من مراسلات بين ملوك أوروبا وبابوات روما وبين الحكام الأيوبيين . أنظر : جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ١٩٨٨ ، ص ٦١ وما بعدها .

(٢) عن هذا الخطاب أنظر ما يتقدم ، ص ٢٦١ وما بعدها .

(٣) انظر ملحق رقم (١) بآخر البحث .

كما يذكر صلاح الدين للبابا فى نهاية خطابه إليه أنه قد عهد إلى المبعوث البابوى بأمور أكثر سرية "Caetera secretiora praefato"[1] . فصلاح الدين يحرص على أن تكون مقابلته لمبعوث البابا أمرا سريا لا يعلم به أحد . كما يُحمِّل هذا المبعوث إلى البابا ما لا يرغب فى أن يُدوَّن فى رسالته إليه، أو يطّلع عليه أحد إذا ما حدث لهذا المبعوث مكروه ، قبل أن يسلم خطاب السلطان إلى البابا بنفسه . ومن الطبيعى إذن ، أن لا يصدر مثل هذا الخطاب عن ديوان الإنشاء . ومن الطبيعى ، أيضا ، أن لا نعثر على نص أو فحوى مثل هذا الخطاب بين طيّات كتب المؤرخين المسلمين . فربما رأى صلاح الدين ، وهو قائد النضال الإسلامى ، وموحد الجبهة الإسلامية ، ومعبىء الطاقات الإسلامية والشعور الوطنى الإسلامى فى ربوع الشرق الأدنى ، للتصدى للكيان الصليبى والقضاء عليه ، وهو الذى عقد عليه المسلمون الآمال الكبار فى تخليصهم من العدو الأول لهم ، ربما رأى كرجل دولة ، أنه من الصعب على رعاياه ، والحال هكذا ، أن يستوعبوا قيام علاقة غير الحرب بينه وبين البابوية — السبب الأول فى وجود الفرنج فى ديار الإسلام — وهو الذى أنكر على الزنكيين من قبل إقامة ما يشبه هذه العلاقة مع القوى الصليبية فى بلاد الشام[2] . وخشى صلاح الدين أنه لن يستطيع أن يشرح مغزى سياسته، فوجد أنه من الأفضل أن تبقى اتصالاته بحكام غرب أوروبا بعامة والبابوية بخاصة طى الكتمان . وقد سار على نهجه من خلفه من سلاطين الدولة الأيوبية ، وأمرائها .

وبالرغم من ذلك ، فقد أمكن الحصول على صورة لأصول هذه الوثائق ، حفظتها لنا سجلات بابوات روما ، ومصنفات بعض مؤرخى أوروبا المعاصرين

(١) أنظر ملحق رقم (١) بآخر البحث .

(٢) استغل عموري الأول ملك بيت المقدس فرصة وفاة نور الدين محمود ، وحاصر بانياس للاستيلاء عليها . إلا أن شمس الدين ابن المقدم أكبر أمراء نور الدين فى دمشق ، خرج على رأس قوات دمشق ، ولم يحارب الفرنج ، واكتفى بأن عرض عليهم أن يتركوا بانياس مقابل مبلغ من المال ، وإطلاق سراح أسراهم فى دمشق . فوافق ملك بيت المقدس على ذلك بعد أن خوّفه ابن المقدم من الزنكيين فى الموصل ومن صلاح الدين فى مصر . وعندما علم صلاح الدين ، أمر المقدم أن يكرهها واستعظمها ، فكتب إلى الأمراء بدمشق يقبّح عليهم ما فعلوه » . أنظر : ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ٥ أجزاء ، جـ ١ ، ٢٤٢ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٠م ، جـ ٢ ، ص ٧ — ٨ ، أبو شامة : [illegible] فى [illegible] ، [illegible] ، جـ ٢ ، ص ٢٣١ — ٢٣٣ [illegible] ، جـ ٢ ، ص ١٣٩ — ١٤٠ .

للفترة الزمنية موضوع الدراسة . هذا ، ويعتز كل الإعتزاز بأن نكون أول من ينهض بمهمة نشر هذه الوثائق ودراستها والربط بينها ، خاصة وأنها مدوّنة باللغة اللاتينية ، ولم تنشر بأية لغة حديثة بعد .

أما عن الوثائق التي بين أيدينا الآن ، فهي إما خطابات بعث بها بابوات روما إلى أصحاب السلطة الأيوبيين في مصر والشام ، وإما هي خطابات الأخيرين إلى رؤساء الكنيسة الغربية . ومن الملاحظ أن البابوية هي التي كانت تبادر بالإتصال بالحكام المسلمين ، والدليل على ذلك أن كل خطابات الأيوبيين إلى بابوات روما عبارة عن ردود على ما وصل إليهم من هؤلاء . كما نلاحظ أنه قلّما توفر خطاب لأحد البابوات والرد عليه في نفس الوقت . واقتصر الأمر على وجود أحدهما فقط دون الآخر . وفي كل الأحوال التي لم يتوفر فيها خطاب معيّن أصدره أحد البابوات ، نستدل على فحواه من فحوى الرد عليه من قبل العاهل الأيوبي الذي راسله هذا البابا من قبل .

من كل ما سبق نتبين أهمية هذا البحث وصعوبته . كما نتبين ضرورة دراسة هذه الوثائق وتحليل نصوصها ، وتفنيدها وربطها بالإطار العام لما كانت عليه الظروف التي صدرت فيها هذه الوثائق، وأحوال كل من المسلمين والقوى الصليبية في الشرق الأدنى وفي غرب أوروبا في الوقت ذاته .

البابا لوكيوس الثالث :

وكان صلاح الدين وأخوه العادل هما أول من اتصل بهما بابوات روما من حكام الشرق الأدنى الإسلامي . فقد بعث البابا لوكيوس الثالث Lucius III (١١٨١ــ١١٨٥ م) إلى كل منهما برسالة يحملها مبعوث خاص . وفي الحقيقة لم نعثر على رسالتي البابا في السجلات الخاصة به[1] ، ولا بين طيّات أي مصدر تاريخي معاصر . ولكن من فحوى ردي كل من صلاح الدين وشقيقه على البابا ــ اللذين لم تتضمنهما سجلات هذا البابا أيضا ــ والذين احتفظ لنا بهما

(١) من المعروف أن سجلات بابوات روما حتى نهاية بابوية انوسنت الثالث قد نشرت في مجموعة Migne ، التي تتعلق بتاريخ آباء الكنيسة اللاتينية "Patrologia Latina" . أما بقية البابوات الذين أتوا بعد ذلك ، فقد وردت الوثائق الخاصة بكل منهم في سجل خاص بهم . أنظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص ٢٤ .

المؤرخ الإنجليزى المعاصر رادولف دى دكيتو Radulf de Diceto فى كتابه صور لتاريخ Ymagines Historiarum(١) ، كنسختين وحيدتين ، نستطيع أن نقف منهما على فحوى رسالتى البابا نفسه ، وعلى تاريخ وصولهما إلى مصر ، بل وعلى طبيعة لهجة التفاوض بين الطرفين وأسبابها .

وبالإطلاع على نصى رسالتى العاهل الأيوبى وشقيقه تتبين ضرورة دراستهما معا ، حيث أن ظروف إصدارهما واحدة ، كما أن المعلومات الواردة فى إحداهما تكمّل وتوضح ما جاء فى الأخرى . وفى البداية ، يتعيّن علينا تحديد تاريخ صدور رسالتى السلطان والعادل ، وتاريخ وصول رسالتى البابا إليهما . فبينما لم يحمل رد صلاح الدين أى تاريخ ، أو حتى يبين ما جاء فيه متى بعث البابا إليه برسالته ، فإن رد العادل قد أرّخ ، أول أبريل ٥٧٨ هـ "Kalendas Aprilis anno Mahomet Dlxx. Octavo"(٢) . ولما كان عام ٥٧٨ هـ يبدأ فى ٧ مايو ١١٨٢ م ، فإن تاريخ رسالة العادل إلى البابا هو أول أبريل ١١٨٣ م/الخامس من ذى الحجة ٥٧٨ هـ(٣) . وإذا عرفنا أن صلاح الدين قد غادر مصر فى ١٣ مايو

(١) ولد رادولف دى دكيتو فيما بين عامى ١١٢٠ م و ١١٣٠ م . وتخرج فى سلك الكنيسة حيث أصبح راهبا فى كنيسة القديس بولس بلندن . ورحل إلى باريس فى الأربعينيات من القرن ١٢ م/٦ هـ حيث درس فى جامعتها الفنون . وفى ١١٥٢ م عين رئيسا لشمامسة كنيسة القديس بولس ، وبقى فى هذه الوظيفة حتى وفاته فى ١٢٠١ م . وفى ١١٦٢ م بدأ اتصاله بالملك هنرى الثانى بعد اشتراكه فى مفاوضة بيكيت رئيس كنيسة كانتربرى المتنازع للملك . وأصبح من رواد البلاط الملكى حتى وفاته . وأتاح له ذلك الاتصال بكبار رجال الدولة ورجال الكنيسة الأمر الذى يسر له الحصول على المعلومات الوافية عن أحوال انجلترا وعلى أوربا مما يضفى على أعماله صفة الأصالة التاريخية . أما عن أحوال الشرق فى بلاد الشام فقد يسر له عمله بالكنيسة الاطلاع على التقارير التى ترد من جماعات الرهبان مثل الداوية والاسبتارية إلى مقدميهم فى انجلترا وإلى رجال الدولة بها . أما عن كتابه « صور التاريخ » فقد كتبه أصلا رغبة منه فى تسجيل تاريخ كنيسة انجلترا وتمجيدها . إلا أنه اهتم فيه بأحوال غرب أوربا إلى جانب فرنسا خاصة "كونتين والمور" . وكتابه يغطى الفترة من عام ١١٤٨ م إلى عام ١٢٠٠ م . واعتمد فيه حتى أحداث عام ١١٧٣ م على كتابه رويرت توري (الحولية) وبعد ذلك يسجل ما عاصره من أحداث كما وضع رادولف كتابا آخر بعنوان « مختصر التواريخ » "Abbreviationes Chronicorum" يغطى فيه الفترة من بدء الخليقة وحتى عام ١١٤٨ م . وللمزيد عن حياة رادولف وأعماله : أنظر :

Antonia Gransden, Historical Writing in England, C. 550 to C. 1307, 2 vols, London 1974, vol. 2, pp. 230-236, D.E. Greenway, The succession to Ralph de Diceto, Dean of St. Paul's, in Bihr, vol. 39, 1966, pp. 96-99.

(٢) ملحق رقم (٢) بآخر البحث .

(٣) محمد مختار ، كتاب التوقيفات الأيامية فى مقارنة التواريخ القبطية بالسنين الأفرنكية والقبطية (ط ١) ، القاهرة ، ١٣١١ هـ ، ص ٢٨٩

١١٨٢ م/٦ محرم ٥٧٨ هـ ، إلى بلاد الشام ليبقى فيها حتى وفاته ، فلابد وأن يكون أوليفر فيتاليس Oliveri Vitalis[١] مبعوث البابا إلى السلطان قد وصل إلى مصر قبل رحيل صلاح الدين إلى بلاد الشام . أما عن جانوس داندولو Janus Dandolo[٢] ، الذى حمل رسالة البابا إلى العادل ، فقد وصل إلى مصر ، كما يذكر العادل نفسه للبابا ، حين كان صلاح الدين يقوم بأعماله العسكرية ضد الصليبيين « فى ربوع صور » "in partibus Tyri"[٣] . ولما كانت آخر أعمال صلاح الدين فى ربوع صور قد وقعت فى عام ١١٧٩ م/٥٧٥ هـ ، فور هدمه لحصن بين الأحزان[٤] ، أى قبل رد العادل على رسالة البابا بنحو ثلاث سنوات ، وكان ذلك فى عهد البابا ألكسندر الثالث Alexander III (١١٥٩ــ١١٨١ م) ، فلابد وأن مبعوث البابا إلى العادل قد وصل إلى مصر خلال الفترة ما بين رحيل صلاح الدين إلى الشام (١٣ مايو ١١٨٢ م/٦ محرم ٥٧٨ هـ) وحتى تاريخ إصدار رسالة العادل إلى البابا (٢ ابريل ١١٨٣ م/٥ ذى الحجة ٥٧٨ هـ) .

هذا عن تاريخ وصول رسالتى البابا لوكيوس الثالث إلى كل من صلاح الدين وشقيقه العادل فى مصر ، وتاريخ الرد عليهما . أما عن فحوى الرسالتين ، فنفهم من ردى صلاح الدين والعادل أن البابا قد دعاهما فى رسالتيه إليهما إلى الموافقة على إتمام عمليات فداء الأسرى مع الصليبيين فى بلاد الشام[٥] . ففى ذلك الوقت كان صلاح الدين قد اقترب من إتمام توحيد الجبهة الإسلامية ، تمهيدا لتوجيه الضربة القاضية إلى الكيان الصليبى كله[٦] . وعلى الجانب الآخر لم تكن أحوال

(١) أنظر ملحق رقم (١) بآخر البحث .

(٢) أنظر ملحق رقم (٢) بآخر البحث

(٣) أنظر ملحق رقم (٢) ، بآخر البحث .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٨٣ .

(٥) أنظر ملحق رقم (١) وملحق رقم (٢) بآخر البحث .

(٦) منذ وفاة نور الدين محمود (١١٧٤ م/٥٧٠ هـ) وحتى تاريخ تحرير رسالة العادل إلى البابا لوكيوس الثالث (أول ابريل ١١٨٣ م/٥ ذى الحجة ٥٧٨ هـ) لم يبق من أملاك الزنكيين خارج سلطة صلاح الدين سوى مدينة حلب التى انضمت إلى أملاكه فى ٧ يونيو ١١٨٣ م/١٣ صفر ٥٧٩ هـ . بينما كان صلاح الدين قد فرض سيطرته على أمراء الجزيرة والموصل ، وامتلك دمشق وسائر مدن الشام المحيطة بأملاك الفرنج الى جانب قاعدته فى مصر . أنظر : ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط ١ ، الاسكندرية ١٩٦٤ ، ص ٥٩ــ١٦٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٤١ وما بعدها

الفرنج فى بلاد تشاء تبشر بالخير[1]. فكانت مملكة بيت المقدس بصفة خاصة تعانى من النقص الشديد فى القوى البشرية ، وخاصة الفرسان . وكانت مساعدات الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين تعوض الإمارات الصليبية ما عاب عنها من إمدادات غرب أوروبا منذ فشل الحملة الصليبية الثانية[2] . ولكن هزيمة الامبراطور فى ميريوكيفالون أمام سلاجقة الروم فى عام ١١٧٦ م/٥٧٢ هـ ، ثم موته بعد ذلك فى عام ١١٨٠ م/٥٧٦ هـ ، جعلا الفرنج يفقدون آخر حليف لهم ، ويفقدون معه آخر مصدر لمساعدتهم[3] . وكان على مملكة بيت المقدس وكل الإمارات الصليبية أن تعتمد على إمكانياتها الخاصة[4] ، فى الوقت الذى عزلها فيه صلاح الدين عن أى مصدر خارجى للمساعدة بإتمام حصاره لها بحرا[5] . وفى الوقت ذاته كانت الجبهة الصليبية قد تصدعت بسبب مشكلة الوصاية على مملكة بيت المقدس الصليبية ، ومرض الملك بولدوين الرابع الذى يأس من أن يبرأ منه[6] . وإذ عانت الإمارات الصليبية من نقص الموارد البشرية ، تكدست

---

(١) يبدأ المؤرخ اللاتينى وليم الصورى آخر فصول كتابه بأمله ، حزنه وتشككه فى أن تتمكن مملكة بيت المقدس من أن تكون بمنأى عن الخطر تحت وصاية بيمند لنانت كونت طرابلس بعد خلافات ذلك بولدوين الرابع مع جى لوزينان كونت يافا . وقد قرر وليم الصورى — بعد أن أنهاه الحزن بسبب الكوارث التى تلم بالمملكة باستمرار — أن يترك قلمه يقطع عن الاستمرار فى سرد تاريخ هذه المملكة . أنظر :

William of Tyre, vol. 2, p. 505

(٢) P.M. Holt: The Age of the Crusades, London, 1986, p. 56

(٣) H.E. Mayer, The Crusades, trans. by J. Gillingham, Oxford, 1972, p. 125

(٤) J. Richard, The Latin Kingdom of Jerusalem, trans. by J. Shirley, vol. 2, Oxford, 1979, vol. 1, p.55

(٥) فى عام ١١٨٧ م/٥٧٦ هـ هاجم الأسطول المصرى ميناء عكا ، بدمر السفن الصليبية الراسية به ، وأغار على ميناء بيروت . وفى العام التالى أتم الأسطول حصاره لموانئ الصليبية مستوليا على السفن الآتية إليها . كما حالت وابلون المسلمون على تسفيه لأتيه من القسطنطينية ومن ظهرها ٤٠ من بلاثين الملايين من الملحة التى أجزها فيهم المدوبقوس كومنين . أنظر : ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ — ١٠٤ ، ١٣٩ — ١٤٠ ؛ أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٢٩ . جمع أيضا

William of Tyre, vol. 2, pp. 475-477

(٦) Ernoul, Chronique de Ernoul et de Bernard le Tresorier, ed. L. de Mas Latrie, Paris, 1871, pp. 98-102

سجون صلاح الدين فى مصر ومدن الشام بأسراه من الصليبيين[1] . ولم يكن فى استطاعة البابوية أن تدفع بحملة صليبية جديدة ، أو أن تشعر حكام غرب أوروبا بحماسية موقف الإمارات الصليبية التى تضاءلت أهميتها بالنسبة لهم أمام صراعاتهم الخاصة[2] . وهكذا لم يجد البابا لوكيوس الثالث بدا من مراسلة صلاح الدين ونائبه فى مصر — العادل —[3] راجيا إياهما الموافقة على إتمام عمليات تبادل الأسرى من فرنج الشام تعويضا للأخيرين عن عجز أوروبا فى مساعدتهم آنذاك وفى وقت كان فيه توازن القوى فى الصراع بين المسلمين والصليبيين قد بدأ يميل بشكل واضح لصالح صلاح الدين .

أما عن رد صلاح الدين على طلب البابا ، فبعد إظهار الامتنان لما يعرضه البابا من حسن العلاقات مع السلطان ، وبعد تذكير البابا بأنه كبير الأمة المسيحية فى غرب أوروبا والمعاقل الصليبية فى بلاد الشام ، يبدى موافقته على طلب البابا شريطة أن يلزم الأخير رعاياه من فرنج الشام بما جرى من اتفاق بين البابا والسلطان . فإن من لدى الصليبيين من أسرى مسلمين ليسو إلا مزارعين ومن هم من أبسط الناس ، بينما كان فى أسر صلاح الدين من الفرنج من ينتمون إلى

---

(١) وقع فى أسر صلاح الدين بعد انتصاره على الفرنج فى مرج عيون (١٠ يونيو ١١٧٩ م/٣ محرم ٥٧٥ هـ) حوالى ٢٥٠ أسيرا كما ظفر الأيوبيون المصريون فى نفس اليوم بسفينة للفرنج وأسر ألف وأسر من نجى . وفى الخمسين ربيع أول من نفس السنة أسيت قوات صلاح الدين بعد هدمه لحصن بنت الأحزان نحو سبعمائة أسير من الفرنج . وفى مايو ١١٨٢ م/محرم ٥٧٨ هـ ألقت فرنج سفينة للفرنج تابعة من أوروبا على ثغر دمياط فأسر المسلمون من بها من فرنج وعددهم ١٦٩٠ أسيرا . وفى نفس الشهر أغار المنصور فرخشاه ابن أخى صلاح الدين على ضيعة وعكا والسوط ورجع معه ألف أسير وبهذا يكون عدد أسرى الفرنج لدى صلاح الدين حتى تدخين حطاب العادل إلى البابا ما يقرب من خمسة آلاف أسير هذا ، غير ما لم تحدده المصادر الإسلامية . انظر : العماد الأصفهانى : البرق الشامى ، جـ ٣ ، ص ٣٦٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٧٥ ، ٧٧ ، ١١٣ — ١١٥ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢) J. Richard, The Latin Kingdom, vol. I, p. 57.

(٣) بقى العادل نائبا عن صلاح الدين فى مصر منذ عام ١١٧٤ م/٥٧٠ هـ وحتى استخلفه السلطان على حلب بعد أخذها من زنكيين فى عام ١١٨٣ م/٥٧٩ هـ . انظر : ابن شداد : النوادر ، ص ٦٢ ، العماد الأصفهانى : البرق الشامى ، جـ ٥ ، ص ١٥٢ — ١٥٣ .

طبقة المحاربين والنبلاء، وعلى الصليبيين أن يقدّروا قيمة من يعون افتداءه من بنى جلدتهم بإطلاق سراح عدد مناسب من أسرى المسلمين لديهم[1].

أما عن رد العادل على طلب البابا نفسه، فبعد إبراز مكانة البابا بين المسيحيين قاطبة، وإعلامه باستقبال العادل لمبعوثه وكرم وفادته له، يبيّن العادل تفهّمه لأهمية طلب البابا لإتمام عمليات فداء الأسرى مع فرنج الشام. ويبدى العادل موافقته على ذلك، كما حدث مع البابا السابق ألكسندر الثالث "Praedecessore Alexandro"[2]، وبناء على رغبة البابا فى أن يستحثّ العادل أخاه السلطان فى اتمام ذلك، فقد أبدى العادل اهتمامه بذلك الأمر. ثم يعدد العادل انتصارات صلاح الدين على الصليبيين، ويبرز مكانته لدى المسلمين الذين يتفانون فى خدمته. وربما قصد العادل من ذلك أن يبين للبابا أن صلاح الدين ليس فى حاجة — أو غير مضطر — لعقد اتفاق مع البابا، وأنه يتعامل مع الأخير من موقف القوة، حتى يدفع البابا إلى قبول ما سيمليه عليه من شروط بعد قليل. فقد عرض صلاح الدين على العادل طلب البابا، وأوصاه بالإستجابة له، لذلك فإن العادل يكتب إلى البابا نيابة عن السلطان وبناء على تعليماته، بالموافقة على طلبه شريطة أن يستجيب الصليبيون فى بلاد الشام، وكذلك ملك بيت المقدس، لنصائح البابا فى ذلك الشأن، وأن يلتزموا بما يتم الاتفاق عليه بين البابا والسلطان، حتى يتم إبرام السلام بين الطرفين، وتتم عمليات فداء الأسرى. أما إذا

(١) أنظر ملحق رقم (١) بآخر البحث.

وقد أراد صلاح الدين أن ينتهز فرصة وقوع كبار قادة الصليبيين فى أسره ويطلب نظير اطلاق سراحهم عدد كبيرا من الأسرى المسلمين لدى الفرنج. فبعد انتصاره على الصليبيين بسهل مرج عيون فى ١٠ يونية ١١٧٩ م ٣ محرم ٥٧٤ هـ وقع فى أسره كل من بولدوين بلين صاحب بيت أمير الجبيل وهيو ابن شكيف كونستبل طرابلس وأودو سانت أمادو مقدم الداوية. وتم اطلاق سراح بولدوين نظير مائة وخمسين ألف دينار واطلاق سراح ألف أسير من المسلمين لدى الفرنج. كما استبدت كونستبل طرابلس بمائة وخمسين أسيرا من الدماشرة الصوفية، وحتى حتة مقدم الداوية الذى مات فى أسره تم تسليمها للفرنج فى مقابل اطلاق سراح أسير مسلم. أنظر: العماد الأصفهانى: البرق الشامى، جـ ٣، ص ١٦٦ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢، ص ١٦ ؛ وراجع أيضا:
William of Tyre, vol. 2, p. 443.

(٢) هذه إشارة لها دلالة هامة، وهى أن البابا ألكسندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١ م) كان قد دخل فى تفاوض مع صلاح الدين لأجل نفس القضية، وكان قد صلاح الدين هو نفسه قد عرض على البابا ألكسندر الثالث. إلا أننا لم نقف على نص رسالة البابا ألكسندر الثالث إلى صلاح الدين، أو على نص رد الأخير عليها. كما لم نقف على أية إشارة تفيد ذلك فى أى مصدر آخر.

لم يلتزم فرنج الشام بذلك، فإن صلاح الدين والعادل يكونان في حل مما وعدا به البابا، ولن يكون عقد السلام مع الصليبيين محل اهتمام السلطان ونائبه أبدا[1].

وإذا كان للبابا لوكيوس الثالث دوافعه التي تجعله يطلب من صلاح الدين عقد هدنة سلام مع الصليبيين ونبادل أسراء معهم، فإن إظهار صلاح الدين والعادل الموافقة على طلب البابا كان وراءه دافع واحد. فصلاح الدين، وحتى تاريخ صدور خطاب العادل إلى البابا (١ ابريل ١١٨٣ م/٥ ذى الحجة ٥٧٨ هـ) لم يكن قد أتم بعد حلقة الحصار حول أملاك الصليبيين، وذلك بضم حلب إلى أملاكه. لذلك كان صلاح الدين يخشى مواجهة الفرنج في معركة حاسمة دون أن يأمن جانب الزنكيين في حلب، الذين ربما يتحالفون ضده مع ملك بيت المقدس، كما فعل زنكيو الموصل من قبل[2]. وربما خشي صلاح الدين وصول حملة صليبية من أوروبا توقف مشروعه ضد صليبي الشام، وتضيع عليه فرصة الانفراد بهم، وهم في حال لا تسمح لهم بالتصدى له. لذلك كله جاءت موافقة كل من صلاح الدين والعادل على طلب البابا مهادنة له وليس كسبا لوده. ولم تطالعنا المصادر التاريخية بما يفيد حدوث ما رغب فيه البابا، وبقيت المملكة الصليبية تعاني من الضعف الذى مهد لسقوطها على أيدى صلاح الدين.

البابا انوسنت الثالث :

ولم يكن من بين الفرنج في بلاد الشام من هو أوسع أفقا من وليم رئيس أساقفة صور. فقد كان يتتبع إنجازات صلاح الدين، وأدرك حجم الخطر المحدق بالكيان الصليبي كله. وتحقق ما توقعه وليم قبل أن ينهي تاريخه. فقد أطاح صلاح الدين بعد انتصاره في وقعة حطين (السبت ٤ يوليو ١١٨٧ م/٢٤ ربيع ثان ٥٨٣ هـ) بجهود تسعة وتسعين عاما من وجود الفرنج في بلاد الشام[3]. وعادت مدينة بيت المقدس إلى السيادة الإسلامية، وفي إيقاع باهر اقتطع صلاح الدين

---

(١) انظر ملحق رقم (٢) بآخر البحث.

(٢) وكان ذلك في عام ١١٨٣ م/٥٧٨ هـ. أنظر العماد الأصفهاني : البرق الشامي، جـ ٥، ص ٧٠.

(٣) De Expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum Libellus, ed. W. Stubbs, in R.S. London, 1871, p.34.

من الكيان الصليبى غالبيته . ولم يبق فى حوزة الصليبيين ما يبعث فيهم الأمل فى البقاء(١) . وبينما كان صلاح الدين يسجد لربه شاكرا فضله عليه(٢) كان خبر الكارثة التى حلت بالكيان الصليبى فى الشرق الأدنى آخذة طريقها إلى غرب أوروبا(٣) .

وبالرغم من أن الحملة الصليبية الثالثة التى جاءت كرد فعل لانتصارات صلاح الدين واستغاثة فرنج الشام بغرب أوروبا ، وهى أكبر الحملات الصليبية وأكثرها تنظيما ، بالرغم من أنها ساعدت على حفظ بقايا الكيان الصليبى من خطر صلاح الدين وهو فى أوج انتصاره(٤) . إلا أنها لم تحقق إنجازا كبيرا . فلم يسترد الصليبيون بيت المقدس ، وكل ما بقى بفضلها فى أيدى فرنج الشام هو شريط ساحلى ضيق يمتد من صور إلى يافا ، وكل ما غنمه الصليبيون فى الشام من أمان هو ما وفرته لهم الهدنة التى عقدها ريتشارد قلب الأسد مع صلاح الدين (سبتمبر ١١٩٢ م/شعبان ٥٨٨ هـ)(٥) . وبقى مصير فرنج الشام مرهونا

---

(١) لم يبق بحوزة الفرنج سوى مدينة صور من مملكة بيت المقدس ، ومدينة طرابلس وقمة أنطرطوس من كونتية طرابلس ، ومدينة أنطاكية وحصن المرقب وبيناء السويدية من إمارة أنطاكية .

J.L. La Monte, from Crusading Kingdom to Commercial Colony, in B.P.I.A.S A., vol. 3, 1944-45, p. 287.

(٢) أدى صلاح الدين فريضة الجمعة فى المسجد الأقصى يوم فتح بيت المقدس (٢ أكتوبر ١١٨٧ م/٢٧ رجب ٥٨٣ هـ) . أنظر : ابن شداد : النوادر ، ص ٨٢

(٣) بعث قادة الدولة اللاتينية برسائل يصفون فيها الكارثة التى حلت بهم على أيدى صلاح الدين إلى حكام أوروبا . كما بعث بوهمند الثالث أمير أنطاكية وإيمرى بطريرك أنطاكية اللاتينى إلى هنرى الثانى ملك انجلترا برسائل مماثلة . وتوجه جوسياس رئيس أساقفة صور إلى غرب أوروبا . وقابل فيليب أغسطس ملك انجلترا وفرنسا بشأن إنقاذ فرنج الشام : أنظر :

Benedict of Peterborough, vol. 2, pp. 13-14; Chronica Regia Cloniensis, in M.G.H., in Ussam Scolarum, Hanover, 1880, pp. 137-138.

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٠٢

(٥) كانت فترة الهدنة ثلاث سنوات وثمانية أشهر . أنظر : ابن شداد : النوادر ، ص ٢٣٣ـ٢٣٥ . العماد الأصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبيح ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٦٠٥ ، راجع أيضا .

Itinerarium Peregrinorum et gesta Regis Ricardi, ed. W. Stubbs, in R.S., London, 1864, p. 446.

بامكانية تكرار جهد البابا أوربان الثانى ولم تكن مثل هذه الإمكانية متوفرة بالمعنى المفهوم فى ظل المتغيرات التى استجدت على المسرح وقتذاك[1] .

على أى حال ، لم يكن ليقوم بمثل هذا الجهد سوى البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ــ١٢١٦ م) الذى كان يرى أنه لا مكان لحملة صليبية يشرف عليها ملوك أوروبا ، ويقتصر دور الكنيسة اللاتينية فيها على دعوة مسيحى الغرب للمساهمة فيها . كما رأى البابا نفسه أن أى حملة صليبية يجب أن تخضع لهيمنة البابوية . كما كان انوسنت مهتما بإعادة بناء مملكة بيت المقدس الصليبية التى دمرها صلاح الدين ، الأمر الذى لم تستطع إنجازه الحملة الصليبية الثالثة . وفى أغسطس ١١٩٨ م ، وفور اعتلائه الكرسى البابوى ، أعلن أنوسنت الثالث مشروع حملة صليبية جديدة[2] .

ولم تكن حماسة البابا الصليبية المجردة هى سبب ذلك ، وإنما الصورة القاتمة التى رسمها تقرير عمورى الراهب aimery the Monk بطريرك بيت المقدس (١١٩٧ــ١٢٠٢ م)[3] إلى البابا فى ١١٩٩ م/٥٩٥ هـ عن الوضع المتردى للكيان الصليبى فى بلاد الشام ، ذلك التقرير الذى حفظه لنا فنسنت دى بيفيه . فالإمارات الصليبية التى استطاعت أن تعيش طوال القرن الثانى عشر الميلادى/السادس الهجرى تقريبا بدون مساعدات كبيرة من غرب أوروبا ، قد استعدت لدخول القرن التالى وبدها ممدودة نحو أوروبا استجداء للعون . فسوانى الصليبيين فى بلاد الشام دون عمق استراتيجى ، والطرق لم تعد مأمونة ، والمجاعة محدقة بالفرنج ، ولم يعد فى مملكة بيت المقدس (فى عكا) احتياطى من الطعام . كما أضرت الحملة الألمانية (١١٩٧ م/٥٩٣ هـ) بالزراعة وبالإتجار مع

---

(١) J.O. Prestwich, Ricard Cuer de Lion: Rex Bellicosus, (Ricardo Cour di leone nella Storia e nella legenda). (- Accademia nazionale dei lincei no. 253), Rome, 1981, p. 15.

(٢) H. Mayer, The Crusades, p. 183

(٣) تولى عمورى رئاسة أساقفة ليسنارية سنة ١١٨٠ م/٦٧٦ هـ وبقى بها حتى تولى بطريركية بيت المقدس . أنظر :

B. Hamilton, The Latin Church in the Crusader States, The Secular Church, London, 1980, p. 122.

المسلمين فى مدن الشام الداخلية[1] . وبالرغم من آراء إنوسنت الثالث السياسية وسياسته الصليبية ، فقد أفلت زمام الحملة الصليبية الرابعة من يديه ، وانحرفت عن مسارها الصحيح[2] . واكتفى البابا باعتبار أخطاء قادة هذه الحملة وما نتج عنها من خسائر للعالم المسيحى بصفة عامة ، أمرا واقعا "Fait accomple"[3] . وبالنسبة للكيان الصليبى فى بلاد الشام ، فقد رأى البابا أن لهذه الحملة ثلاث فوائد . أولها أن السلطان الأيوبى الملك العادل تخوّف من أن يؤدى سقوط القسطنطينية بسهولة فى أيدى اللاتين إلى تقوية الصليبيين فى الشام ، كما كان الحال أيام تدعيم الإمبراطور مانويل كومنين لهم ، فسارع العادل إلى عقد هدنة مع صليبى الشام لمدة ست سنوات (من سبتمبر ١٢٠٤ م/صفر ٦٠١ هـ إلى سبتمبر ١٢١٠ م/ربيع أول ٦٠٧ هـ)[4] . أما ثانى فائدة للحملة الرابعة ، كما رآها البابا إنوسنت الثالث ، هى توحيد كنيستى القسطنطينية وروما تحت سيادته[5] . وثالث هذه الفوائد هى ما خشيه الملك العادل ، وهو أن قيام إمارة لاتينية فى القسطنطينية يشكل سدا للإمارات الصليبية فى بلاد الشام . ولم يكن البابا محقا إلا فيما يخص الفائدة الأولى .

فبالرغم من عقد الهدنة مع الملك العادل ، فقد رحب كثير من صليبى الشام بدعوة بولدوين إمبراطور القسطنطينية اللاتينى للهجرة إلى القسطنطينية . وكما حدّد إرنول ، فقد ترك فلسطين ما يقرب من مائة فارس ، وعشرة آلاف من الفرنج راحلين إلى القسطنطينية . وكان ذلك فى بدايات عام ١٢٠٥ م/أواسط عام ٦٠١ هـ[6] ، حين كانت المملكة الصليبية فى أشد الحاجة إلى الموارد البشرية للدفاع عنها . وكما رأى البابا إنوسنت ، أنه لذلك السبب ، لم يعد بمقدورنا الدفاع

(١) Vincent de Beauvais, Speculum Historiale, Graz-Austria, 1965, Lib XXIX, Ch. Lix.
وعن فسنت دى بيفيه وحياته وأعماله . أنظر : حسين عطية ، مملكة القدس الصليبية ، والمسلمون ، ص ٤٨ــ٥٠ .

(٢) J. Gill, Franks, Venetians and Pope Innocent III, in S.V., 1970, pp. 87-88.

(٣) Chronica Regia Coloniensis, in M.G.H., in Usum Scolarum, p. 212.

(٤) لمن وافق : مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص ١٦١ــ١٦٢ ، راجع أيضا :
Eracles, L'Estoire d'Eracles, empereur et la conquest de la Tre d'Outremer, in R.H.C.-H.Occ., pp. 259-263

(٥) H. Mayer, The Crusades, p. 205

(٦) Ernoul, p. 398.

عن ساحل فلسطين ، التى لا يزال فى أيدى الصليبيين ، ضد هجمات المسلمين ، وبسبب النقص فى عدد المقاتلين ، فاننا بالكاد سنتمكن من الدفاع عن مملكة قبرص »(١) .

وهكذا أصبح من المؤكد أنه لن يكون فى إمكان البابوية مساندة الصليبيين فى الشام إلا بإيفاد حملة صليبية جديدة . ولما آل مصير من قاموا بحملة ١٢١٢ م/٦٠٩ هـ — حملة الأطفال — إلى الهلاك والعبودية(٢) ، ولأنها لم تكن بالحملة التى يمكن الإعتماد عليها فى الدفاع عن الكيان الصليبى ، واسترداد ما أخذه صلاح الدين ، فلم تستغرق أوروبا وقتا طويلا فى الحزن عليها ، ولم تنشغل البابوية كثيرا فى نعيها للمجتمع الأوروبى ، بل بدأت تحّث هذا المجتمع على القيام بحملة صليبية جديدة تخضع لسلطان البابا مباشرة . وحتى يتم ذلك ، كان على البابا إنوسنت الثالث أن يبذل بذله فى استمرار أحد نماذج دبلوماسية الحروب الصليبية ، الذى بدأه من قبل كل من البابا ألكسندر الثالث والبابا لوكيوس الثالث . كان عليه الإتصال بالأيوبيين علّه يتمكن بالدبلوماسية من تحقيق ما فشلت فيه سياسته العسكرية .

فبحلول سبتمبر ١٢١٠م/ربيع أول ٦٠٧ هـ انتهى أمد الهدنة بين العادل والصليبيين . ولم يعكر صفو العلاقات بين الطرفين شيء ذو أهمية . وعلى مشارف عكا ، عرض العادل على حنا ابلين John of Iblien الوصى على مملكة بيت المقدس تجديد الهدنة ، على أن يرد إليهم عدة قرى تابعة لعكا ، إلا أن صلف جماعة الداوية أضاع على الصليبيين فرصة تسامح العادل(٣) . وكان على الفرنج أن يتعرضوا للتهديد الدائم . فبعد أن أخرج العادل إبنه المعظم عيسى للإغارة على ضواحى عكا(٤) ، شرع المعظم فى بناء قلعة على قمة جبل الطور المطل على عكا ، الأمر الذى جعل للمسلمين اليد الطولى ، وجعل طرق الاتصال بين مدن

(١) R. Grousset, Histoire des Croisades, 3 toms., Paris 1934-36, t. 3, pp. 173-177.

(٢) Chronica Regia Coloniensis, in M.G.H ss., vol. 27, pp. 18.

(٣) Eracles, pp. 315-316.

راجع أيضا سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٩٥٨ .

(٤) أبو شامة (شهاب الدين) : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين — نشره السيد عزت العطار — بيروت (ط ٢) ١٩٧٤ ، ص ٧٠

الساحل الصليبية تحت رحمة المسلمين [1]. ودفع هذا التهديد بحنا برين John of Brienne ملك بيت المقدس الجديد (١٢١٠ــ١٢٢٥ م) ، إلى السماح لقوات الداوية وأتباعه بإغارة فاشلة على مصر [2]. وكان أن اتجه العادل إلى الأسكندرية واعتقل من بها من تجار الفرنج ، وصادر بضائعهم ، تحسبا للتعاون بين هؤلاء وبين والتر مونتبليارد قائد الغارة الفاشلة [3]. فسارع حنا برين بتجديد الهدنة مع العادل لمدة ست سنوات [4]. إلا أن عقد الهدنة مع العادل لم ينه شعور الفرنج بخطر وجود المسلمين على مشارف عكا فى قلعة جبل الطور . وكما يخبرنا ابن نظيف الحموى ، فإن الفرنج سارعوا إلى الإستغاثة بغرب أوروبا «يعرفونهم بأن الطور إن حصروه وهو قوى فإنه يملكون الساحل » [5]. وأول من أدرك معنى ذلك هو البابا إنوسنت الثالث . فحتى يتمكن من إنقاذ حملة صليبية لنجدة فرنج الشام ، اتبع أسلوب التفاوض مع بنى أيوب ، متبعا نهج أسلافه وسياستهم فى التفاوض مع أولى الأمر فى مصر والشام من الأيوبيين .

ففى هذه الفترة استغاث أسرى الفرنج فى مصر بالبابا إنوسنت الثالث ، فبعث إليهم أنه قد أصدر أوامره إلى بطريرك بيت المقدس ألبرت أوف فيرسل

---

(١) ابن الأثير (عز الدين) : الكامل فى التاريخ ، جـ ١٢ ، القاهرة (المطبعة الحسينية) ، ١٣٥١ هـ ، جـ ١٢ ، ص ١٣٨ . راجع أيضا : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٩٥١ــ٩٥٢ .

(٢) وصلت هذه الغارة حتى مصب النيل عند فرع دمياط ولم تظفر بشىء ، أنظر : Eracles, p. 316

(٣) وكان ذلك فى نهاية عام ١٢١٢ م/أوائل عام ٦٠٩ هـ حيث أسرع العادل بالقدوم من الشام إلى الأسكندرية كما يخبرنا المقريزى لأنه « اجتمع فيها من تجار الفرنج ثلاثة آلاف رجل وملكان من ملوكهم وعزموا على أن يثوروا بأهل الأسكندرية فاستصفى العادل أموالهم واعتقل الملكين وعاد إلى القاهرة » وقد أورد المقريزى نص الرواية مقتصرا على ذكر اجتماع التجار الإيطاليين بالأسكندرية دون الإشارة إلى عزمهم على القيام بالقلاقل . ولهذا يعترض المؤرخ الفرنسى جان ريشار ــ الذى استشهد برواية المقريزى فقط ــ بعترض أن والتر كان يأمل فى أن يثور التجار الإيطاليين فى الأسكندرية يساعدونه على الإستيلاء عليها ، الأمر الذى تؤكده رواية العسقلانى . أنظر العسقلانى : (أبو البركات عز الدين) : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، مخطوط بمكتبة المتحف البريطانى ، رقم ٥٤٤٩ د ، ورقة ٦٢ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٠٩ . راجع أيضا .

J. Richard, p. 216.

(٤) ابن نظيف (أبو الفضائل الحموى) : التاريخ المنصورى ، وهو تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان ، تحقيق أبو العيد دياب ، دمشق ١٩٨١ ، ص ٦٢ . راجع أيضا Eracles, 317

(٥) ابن نظيف : تاريخ المنصورى ، ص ٣١

Albert of Vercelli (١١٧٠ــ١٢١٤ م) والأمراء المسيحيين فى الشرق ، أن يجمعوا الأموال اللازمة لافتدائهم ، وقبل كل شىء أن يوافقوا على تبادل الأسرى مع المسلمين(١) . وفى ٦ مايو ١٢١٣ م/١٣ ذى الحجة ٦٠٩ هـ ، بعث البابا برسالة إلى السلطان العادل فى مصر ، يشرح له كيف أن سقوط مدينة بيت المقدس فى أيدى أخيه صلاح الدين لم يكن بسبب فضائل الأخير ، وإنما بسبب غضب الله على المسيحيين ، ثم يذكر البابا السلطان الأيوبى بأن فى السماء رب يبدل الأزمان ، وبإرادته يمنح ممالك هذا العالم لمن يشاء . ثم يلتمس البابا رحمة السلطان بالأسرى الفرنج لديه ، وبسكان مملكة بيت المقدس التعساء . ويتوسل إليه أن لا يسيل مزيدا من الدماء ، وينصحه بأن يعيد مدينة بيت المقدس إلى الصليبيين ، مبينا له كيف أن بقاء المدينة المقدسة فى حوزة المسلمين لن يعود عليه بفائدة ، بقدر ما سوف يكلفه من تضحيات . ويتبع البابا نصيحته هذه للسلطان بطلبه أن يوافق العادل على إتمام عمليات فداء الأسرى مع الصليبيين ، وأن ينهى القتال معهم حتى يستريح الطرفان من عناء الصراع . ويختتم البابا رسالته بحثّ العادل على حسن استقبال مبعوثيه إليه وعلى كرم وفادتهم(٢) .

وربما يكون طلب البابا بإعادة مدينة بيت المقدس إلى الفرنج أمرا غير مألوف فى مكاتبات رؤساء كنيسة روما إلى بنى أيوب من قبل . واقتصرت مراسلات كل من ألكسندر الثالث ولوكيوس الثالث على طلبهم موافقة المسلمين على إتمام عمليات تبادل الأسرى مع الفرنج ، وربما عقد الهدن معهم ، إلا أن أيا منهم لم

---

(١) Innocent III, Pope, Regesta, in P.L., vol. 214, col. 444

(٢) توجد عدة نسخ لرسالة البابا إنوسنت الثالث إلى الملك العادل . والنسخة الوحيدة الكاملة هى النسخة التى رجعنا إليها هنا ، والتى أوردها المؤرخ الإيطالى المعاصر ريتشارد دى سان جرمان فى حولياته التى تعالج الفترة من ١١٨٩ م إلى عام ١٢٤٣ م . وتقع فى ثمانى عشرة صفحة إحتلت أربعين صفحة أنظر :

Ryccardus de San. Germano. Chronicon, in Muratori, R.I.S., vol. VIII, col. 985-986.

أما بقية النسخ ، فقد جاءت فى شكل مختصر ، مما يوحى بأنها نسخت عن النص الذى أورده ريتشارد :

Innocent III, Pope, Regesta, in P.L., vol. 216, Cols. 831-832; C.A.S. potthast, ed., Regeste Pontificum Romanorum, vols. 2, Berlin, 1873-75, vol. 2, no. 4719; Rohricht Regesta, no. 864, p. 232

راجع أيضا ملحق رقم (٣) بآخر البحث .

يذهب إلى الحد الذى ذهب إليه إنوسنت الثالث . إلا أنه يتتبع اهتمامات هذا البابا بأحوال الصليبيين فى بلاد الشام ، ربما نقف على الدافع من وراء طلبه هذا .

ففى عام ١١٩٨ م/٥٩٤ هـ ، طلب البابا من كل من عمورى بطريرك بيت المقدس وجود فرى دى دوغون مقدم الاسبتارية وجلبرت دورال مقدم الداوية أن يبعثوا إليه بتقاريرهم المسهبة عن أحوال المسلمين السياسية فى مصر والشام ، حتى يتسنى له إعداد الحملة الصليبية التى يعتزم إيفادها إلى الشرق بشكل يتناسب وقوة المسلمين[1] . وفى نوفمبر ١١٩٩ م/محرم ٥٩٦ هـ ، بعث البطريرك ومقدما الداوية والإسبتارية بتقارير وافية عن أحوال بنى أيوب فى مصر وسائر بلدان الشرق الأدنى ، إلى جانب وصف جغرافى دقيق لمصر وبلاد الشام ، تضمنه تقرير البطريرك . ولحسن الحظ ، فقد حفظ لنا ريتشارد دى سان جيرمان نص التقرير الذى بعث به مقدما الداوية والاسبتارية فى خولينه المذكورة[2] . الا أنه بالرغم من دقة ووفرة المعلومات التى تضمنها هذا التقرير عن السلطان العادل وعلاقاته بأفراد أسرته من أحكام الشام والعراق ، وعن سائر حكام المسلمين فى الشرق الأدنى ، فقد بعث مقدما الداوية والاسبتارية إلى البابا ببعض المعلومات الخاطئة عن أمراء الشام من أبناء العادل[3] . فأبناؤه كما يزعم التقرير ، يشنون إعادة الأراضى

(١) Innocent III, Pope, Regesta, in P.L., vol. 214, cols. 737-738; potthast, Regesta Pontificum, vol. 1, no. 851; Rohricht, Regesta, no. 760, pp. 202-203.

(٢) Ryccardus de San. Germano, Chronicon, cols. 986-988.

وقد أشار كل من بوثاست وروهرشت الى تقرير البطريرك وحده ، فى حين أشار روهرشت الى تقرير مقدمى الداوية والاسبتارية عند الإشارة الى رسالة البابا الى السلطان . أنظر :

Potthast, Regesta pontificum, vol. 1, no. 935; Rohricht, Regesta, no. 762, p. 203

كما ورد نص تقرير مقدمى الداوية والاسبتارية فى نسخة كتاب وليم الصورى (المنسوب خطأ الى رونلال) الا أن مؤلفه المجهول ينسب التقرير الى عمورى الراهب بطريرك بيت المقدس (١١٩٧—١٢٠٢ م) . أنظر :

Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyr|dite du manuscrit de Rothelin (1229-1261), in R.H.C.-H.Occ., t. II, Paris, 1869, pp.520-522.

(٣) منذ تولى العادل حكم الدولة الأيوبية ، فقد استعان فى تنظيم دولته بأبنائه . فأناب الكامل محمد فى حكم مصر ، وجعل المعظم عيسى فى دمشق ، وأعطى الأشرف موسى حران ، والأوحد ميافارقين ، بينما تولى حكم حلب الظاهر غازى ابن صلاح الدين ، بأخوه الأفضل فى سميساط ، وأقطع العادل حماة وأعمالها للملك المنصور ابن عمه سلطان مصر السابق . أنظر : المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ١٨٩—١٩٠ .

المقدسة إلى فخامة البابا ، وهى الأراضى التى يحتفظون عليها رغما عن المسيحيين » .

"Volunt isti libenter reddere in manus Domini papae Terram Sanctam, quam tenent ad opus Christianorum"(١).

وهكذا خدع البابا بأمل كاذب(٢). فبالرغم من تسامح العادل واعتدال سياسته تجاه الصليبيين(٣)، إلا أنه لم يكن هناك ما يدعوه إلى أن يفرّط فى المكاسب التى حققها أخوه صلاح الدين . كما أنه لم يتوان فى أى وقت عن صد أى نشاط يقوم به فرنج الشام . كما أن علاقاته بأولاده قوية ومستقرة ساعدت على استمرار وحدة الدولة الأيوبية فى عهده ، دون أن يصيبها الاضطراب الذى أصابها لتفرق كلمة أبنائه فى عهد خلفه الملك الكامل . فكان العادل مسيطرا على زمام الأمور فى دولته لامتثال أبنائه لأوامره(٤). ولكن التقرير الذى وصل إلى البابا إنوسنت كان مضللا ، ومن هنا جاء طلبه إلى العادل برد بيت المقدس إلى الصليبيين ، تلك المدينة المقدسة التى كانت محور الصراع بين المسلمين واللاتين ، والتى كلل صلاح الدين جهاده ضد الفرنج باستعادتها بعد توحيد الجبهة الإسلامية فى مصر والشام .

ومهما يكن من أمر ، فلم نقف على رد العادل على رسالة البابا فى أى مصدر تاريخى . وإذا كان ذلك قد تم ، فمن المؤكد أن هذا الرد سيتضمن عدم الموافقة

(١) Ryccardus de San. Germano, Chronicon, col. 987.

(٢) بعد أن يشير بعرشت إلى رسالة البابا إنوسنت الثالث إلى السلطان فإنه يلقى بتبعة تضليل البابا على جماعة الداوية فقط دون جماعة الإسبتارية . إلا أن ريتشارد دى سان جيرمان الذى أورد النسخة الوحيدة لهذا التقرير ، والذى رجع إليها بعرشت ، ينسب هذا التقرير إلى قائدى الداوية والإسبتارية معا . أنظر :

Ryccardus de San. Germano, Chronicon, col. 986; Rohricht, Regesta, no. 864, p. 232.

(٣) وكان العادل ، لا يرى محاربة أعدائه ، ويستعمل فى مفاصلته فتكاتهم واخدع . فهادنه الفرنج لقوة حزمه بشدة بقطنه وغزارة عقله وقوة كيده » أنظر : المقريزى . السلوك . جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٢٩ .

(٤) ويؤكد ذلك ما يورده كل من المقريزى وابن تغرى بردى فقد « رأى العادل فى أولاده ما يجب . وكان كثيرا ما يتردد العادل فى ممالك أولاده ، وأكثر إقامته بصيف بدمشق ، وشتى بمصر ، وكان للعادل الإشراف التام على أعمال الدولة الأيوبية ، بحيث ينتقل فى ممالك أولاده ، والعمدة فى كل الممالك عليه » أنظر : المقريزى . السلوك ، جـ ١ قسم ١ ، ص ٢٢٩ ، ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن) . النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . جـ ٩ . القاهرة . مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩—١٩٤٢ ، جـ ٦ ، ص ٢٢٧ .

على ذلك . أما بخصوص تبادل الأسرى بين المسلمين وفرنج الشام ، وعقد معاهدة السلام بين الطرفين ، فربما كرّر العادل في رده على إنوسنت الثالث ، شروطه التي أقرن بها رده على سلفه لوكيوس الثالث في عام ١١٨٣ م/٥٧٨ هـ ، بأنه يوافق على هذا الطلب طالما التزم الصليبيون بما يتم بين البابا والسلطان في هذا الشأن .

وإذا كان البابا إنوسنت قد راسل العادل كما راسله سلفاه ألكسندر ولوكيوس ، وإذا كان الأخيران قد تفاوضا مع بني أيوب حفاظا على الكيان المتداعي لمملكة بيت المقدس الصليبية في الوقت الذي لم يكن في مقدور أوروبا ولا البابوية أن يبعثا بالمساعدة للإمارات الصليبية في الشرق ، فبالنسبة لإنوسنت الثالث ، لم يقتصر الأمر على ذلك . فكما كان رد صلاح الدين والعادل على لوكيوس في ١١٨٣ م/٥٧٨ هـ مهادنة مهما له حتى ينجبا أي عائق ربما يأتي من غرب أوروبا من شأنه أن يوقف مشروع صلاح الدين الكبير ضد الفرنج ، فإن مفاوضة إنوسنت الثالث مع العادل — بالمثل — كانت مجرد مهادنة من البابا للسلطان حتى يتسنى للأول أن يوفد الحملة الصليبية المأمولة . فقد كان إنوسنت يرقب المسلمين من البعد ، ويحرص دائما على الوقوف على أحوالهم[1] . وهذا ما أكدته لنا تقارير بطريرك بيت المقدس وقادة الداوية والاسبتارية إليه . كما يورد لنا المؤرخ العربي ابن نظيف الحموي نصا فريدا يوضح كيف كانت أحوال بني أيوب في مصر والشام محل اهتمام الفرنج . فيذكر ابن نظيف ، أنه في عام ١٢١٠ م/٦٠٧ هـ قد « وصل الى الديار المصرية كليام التاجر الجنوي — لعنه الله — وقدم للسلطان الملك العادل الأيوبي ، صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والشرقية أشياء وصادقه ، فأحسن السلطان إليه ، وكان في جملة إحسانه إليه ، أنه يأخذه معه إلى أين يتجه ، وكان الملعون في ضمن ذلك يكشف الأحوال أولا بأول ويكاتب بها الفرنج ، وقيل للسلطان فما التفت إلى كلام القائلين »[2] . ومن هذا النص يمكن التأكد من أن هذا التاجر قد نجح في اكتساب ثقة السلطان ، حتى أنه كان يصطحبه معه في كل جولاته ، وحتى التي تتعلق بأمن دولته . وكان ابن نظيف مهتما بحال هذا التاجر مع السلطان . فيخبرنا أن العادل ذهب إلى

---

(1) Recueil des San Germano Chronicon, f. 986

(2) نقل المقريزي بعض قد ما نص عن ابن نظيف دون أن يشير إليه ، انظر : ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ٦٥ ، ٦٦ ؛ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٠٠ .

الأسكندرية فى عام ١١٢١ م/٦٠٨ هـ « لكشف أحوالها وكليام صحبته » . وفى نفس السنة « نزل الملك العادل الشام ، وسار إلى الجزيرة ، رتّب أحوالها ... ، وعاد إلى دمشق وكل هذا وكليام الفرنجى صحبته » ، وعاد العادل إلى مصر فى عام ١٢١٤ م/٦١١ هـ « وكليام لا يفارقه »[١] . أى أن هذا الفرنجى قد رافق السلطان فى تجواله فى بلاد الشام والجزيرة لمدة ثلاث سنوات ، إطّلع فيها على أحوال المسلمين ، وإجراءات العادل فى ربوع دولته ، بالرغم من أنه « كان فى باطن الأمر عينا للفرنج ، يطالعهم بالأحوال »[٢] . ولما لم يحدد ابن نظيف ولا المقريزى — الذى نقل عنه نفس الرواية — ما إذا كان هؤلاء الفرنج هم فرنج الشام أم غيرهم ، ولما كان من الصعب على هذا الجنوى الاتصال بفرنج الشام وهو ملازم للسلطان وفى معيته ، حتى أنه آخر مرة شوهد فيها فى مصر فى عام ١٢١٤ م/٦١١ هـ نزل مع السلطان بدار الوزارة[٣] ، فليس من المستبعد أن يكون كليام هذا مكلّفا من قبل البابا إنوسنت الثالث نفسه بمهمة كشف أحوال دولة السلطان الأيوبى ، خاصة أن هدف البابا من طلب التقارير عن أحوال المسلمين فى ذلك الوقت ، كان لإعداد الحملة الصليبية المناسبة لقتالهم[٤] . ولما كانت سيرة هذا التاجر الجنوى تتوقف عند كل من ابن نظيف والمقريزى فى عام ١٢١٤ م/٦١١ هـ ، فمن المحتمل أن يكون هذا الجاسوس قد عاد إلى أوروبا ، وأعلم البابا بكل ما وقف عليه من أحوال المسلمين فى دولة السلطان العادل . وليس بعيداً أن تكون الصورة قد اتضحت أمام البابا ، وعرف مدى إمكانيات المسلمين ، فقرر إعلان قيام الحملة الصليبية التى كان يأمل فى إيفادها لنجدة

---

(١) ابن نظيف الجنوى . المصدر السابق ، ص ٦٧ــ٦٨ ، ٧٠ ؛ المقريزى . المصدر السابق ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٠٩ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٠٧ .

(٣) المقريزى : المصدر السابق ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢١٤ .

(٤) « كذلك لما كان البابا نفسه يريد أن يعرف أراضى وعادات وقوة هؤلاء المسلمين الذين كان جيش المسيحيين ، يتم تجهيزه لقتالهم حسب أوامره شخصيا » .

"Item scire volens ipse papa terras, mores, & vires Agarenorum, contra quos de ipsius mandato Christianorum exercitus Parabatur".

انظر

Ryccardus de San. Germano, Chronicon, col. 986; Arnold of Lubeck, Chronica Slavorum, in M.G.H.ss., in Ussum Scholarum. Hanover, 1868, p. 215.

صليبيى الشام ، وذلك فى المجلس الكنسى الرابع الذى عقده فى روما فى ١١ نوفمبر ١٢١٥ م/٦ رجب ٦١٢ هـ ــ العام التالى لرحيل جاسوسه من مصر ــ الذى كانت غالبية قراراته ضد الأيوبيين[١] .

وبذلك يكون البابا إنوسنت الثالث قد اتبع أسلوب التفاوض مع السلطان الأيوبى مهادنة له ، وكسبا للوقت ، وحتى يحقق ــ بقدر الإمكان ــ ما يفيد الإمارات الصليبية فى بلاد الشام . فبالرغم من طلب البابا الذى يتسم بالغرابة ــ أن يسلم العادل مدينة بيت المقدس للفرنج ــ فقد حاول أن يعيد للفرنج أسراهم لدى السلطان وهم فى حاجة إلى كل الموارد البشرية ، أو يحصل على الأقل على موافقة السلطان بشأن عقد هدنة سلام مع الصليبيين حتى يتمكن البابا من إعداد حملة صليبية ، يمكنها أن تنجز ما فشلت فيه الحملات التى قامت من أوروبا بعد سقوط مملكة بيت المقدس عام ١١٨٧ م/٥٨٣ هـ ، تلك هى الحملة الصليبية الخامسة .

كان من الطبيعى أن تتوقف الإتصالات الدبلوماسية التى تمت بين عدد من بابوات روما وحكام مصر من بنى أيوب بعد موت البابا إنوسنت الثالث (١٢١٦ م/٦١٣ هـ) . فقد رحل هذا البابا دون أن تتحقق أغلى أمانيه بقيام حملة صليبية كبرى تحت إشراف البابوية . وخلفه فى منصبه البابا هنوريوس الثالث Honorius III (١٢١٦ــ١٢٢٧ م) . ودون أن يبذل الأخير جهدا يمكن مقارنته بجهود سلفه ، فقد قامت أثناء بابويته الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ــ١٢٢١ م/٦١٥ــ٦١٨ هـ) على مصر[٢] . ولما كانت هذه الحملة مشروعا بابويا ، فلم يكن من السهل أن يفسح العداء الصريح مجالا للدبلوماسية بين البابا والسلطان الأيوبى وقتها العادل . لذا لم تحفظ لنا المصادر التاريخية ولا

(١) إلى جانب قيام حملة صليبية ضد مصر ، فقد كان من أهم القرارات التى اتخذها المجلس الكنسى الرابع هو تحريم الإتجار مع الأيوبيين فى مصر على كل من المدن التجارية فى إيطاليا وأوروبا . كما قرر البابا فى هذا المجلس توقيع عقوبة الحرمان والقطع من الكنيسة على كل من عد الأيوبيين بالأسلحة أو الرقيق أو الأخشاب . وللمزيد عن قرارات هذا المجلس انظر

Louise and J. Riley Smith, The Crusades, Idea and Reality (1095-1274), in Documents of Medieval History, London 1981, pp. 124-129.

(٢) J. Brundage, The Crusades: A Documentary survey, Wisconsin, 1976, p. 213.

السجلات البابوية أى نوع من المراسلات مع أى من حكام الشرق الأدنى الإسلامى من بنى أيوب والبابا هنوريوس الثالث .

البابا جريجورى التاسع :

وكان للبابا جريجورى التاسع Gregory IX (١٢٢٧ــ١٢٤١ م) دور كبير فى إعادة الإتصال بين رؤساء الكنيسة الغربية والأيوبيين فى مصر والشام . ويتمثل هذا فى أحد خطاباته إلى السلطان الكامل محمد فى مصر . ويبدو أن الفشل الذى لازم الحملات الصليبية التى أشرفت عليها البابوية ، وآخرها الحملة الصليبية الخامسة ، فى استعادة ما فقده الصليبيون على يدى صلاح الدين ، إلى جانب عدم رضاء البابوية وصليبيي الشام عن إنجازات حملة الإمبراطور فريدريك الثانى (الحملة السادسة) ، وحسن علاقات الإمبراطور ــ المحروم من الكنيسة ــ مع السلطان الأيوبى الملك الكامل ، يبدو أن كل ذلك ترك بصماته على أسلوب المفاوضات الذى انتهجه البابا جريجورى التاسع مع أولى الأمر من بنى أيوب . فلمس فى مراسلاته إلى هؤلاء روحا جديدة وأسلوبا مغايرا لما اتبعه أسلافه من البابوات ، وخاصة فى مراسلاته إلى حكام دمشق وحلب والخليفة العباسى فى بغداد آنذاك[1] . أما عن المفاوضات التى بدأها جريجورى التاسع مع السلطان الكامل ، فإنها جاءت مختلفة تماما فى نوعها عن مراسلات البابوات السابقين . فقد كتب البابا فى ١١ أغسطس ١٢٣١ م/١٠ شوال ٦٢٨ هـ إلى السلطان مبديا له قلقه واستياءه الشديدين لموقفه من بعض التجار الغربيين . فعلى غير عهده بالكامل قام السلطان باعتقال تجار مدينة أنكونا Ancona[2] الذين بقوا فى

---

(١) أنظر ما سبق ، ص ٢٥٧ ، حاشية رقم (٤) .

(٢) كان لتجار مدينة أنكونا الإيطالية نصيب غير قليل من تجارة الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية . وتمتع تجار أنكونا بامتيازات كثيرة فى موانى الإمارات الصليبية فى الشام مثل رملاتهم تجار جنوا وبيزا والبندقية . فقد منحهم البابا إنوسنت الرابع حرية التجارة فى عكا وفى كل أنحاء مملكة بيت المقدس مع إعفائهم من الرسوم المقررة على البضائع وذلك فى عام ١٢٤٥ م/٦٤٣ هـ . وفى ١٢٥٧ م/٦٥٥ هـ منح باروناث المملكة إخوة أنكونا حيا خاصا بهم فى عكا ، بالإضافة إلى كنيسة وفندق بالقرب من الميناء عبر المساهمة بخدمة حصين فارسا للدفاع عن المملكة . وكانت حانية أنكونا فى عكا قد اتخذت جانب الجنوية فى صراعهم مع البيازنة فى مواني الشام فى أواسط القرن ١٣ م/٧ هـ . أنظر :

Rohricht, Regesta, no. 1259, pp. 330-332 (Cf. J. Richard, The Latin Kingdoms, vol. 2, pp. 354, 366.

ميناء الأسكندرية بعد التوعد الحدد لمغادرتهم الميناء ، ثقة منهم فى تسامح السلطات المصرية آنذاك . كما تم مصادرة أموال وبضائع هؤلاء التجار ، الأمر الذى يعده البابا منافٍ لأخلاق السلطان وشيمه حيال التجار الأجانب فى موانى دولته . ويرى البابا ، كما يذكر فى خطابه إلى السلطان ، أن ما حدث لهؤلاء التجار سيدفع إلى عدم الثقة فى تعهدات السلطان . ويختم البابا رسالته إلى الكامل بحثه إياه على الإسراع بتدارك ذلك ، واتخاذ الإجراءات الكفيلة بإطلاق سراح التجار المذكورين ، ورد كل ما صادرته السلطات المصرية من بضائع وأموال إليهم ، حتى ينال السلطان رضا الرب وثقة البابا(١) .

وبالإطلاع على نص رسالة البابا إلى السلطان الكامل — وكذلك سائر رسائله إلى أمراء الشام الأيوبيين — نلاحظ أنها لم تتضمن أى مطلب يخص الصليبيين فى بلاد الشام . وهكذا ، فلأول مرة يتفاوض أحد بابوات روما — جريجورى التاسع — مع السلطان الأيوبى دون أن يتطرق فى مخاطبته إياه إلى عمليات تبادل الأسرى بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام ، أو يحثه على عقد هدنة معهم ، مع أن البابا جريجورى التاسع كان يسير على نهج البابا الأسبق إنوسنت الثالث فيما يخص الاهتمام بأحوال الفرنج فى بلاد الشام(٢) . وإلى جانب ذلك فلم تكن أحوال هؤلاء مستقرة بالدرجة التى لا يتهز البابا معها فرصة اتصاله بالسلطان الأيوبى ، ويطلب منه إيقاف عملياته العسكرية ضدهم(٣) .

(١) قام رودنبرج بنشر النسخة الكاملة لخطاب البابا جريجورى إلى السلطان الكامل محمد ، بينما أشار إليها بإيجاز كل من رويحشت وأوبراى وبوثاست . وقد رجعنا إلى نسخة رودنبرج . أنظر :

C. Rodenberg, Epistolae saeculi xiii le regestis pontificum romanorum selectae, 3 vols; Berlin 1883-1894, in M.G.H.s, vol. 1, no. 449, p. 362; Rohricht, no. 1025, p. 268; Gregory IX, Pope, Les Registres; ed. L. Auvray (Bibliotheque des Ecols Francaises d'Athéne et de Rome, ser. 2, 3 vols. Paris, 1896-1955, vol. 1, no. 699; Potthast, Regesta pontificum, vol. 1, no. 8784

(٢) كان البابا جريجورى التاسع أشد صراحة من سلفه هنوريوس الثالث فيما يخص ما للبابوية من سلطة إلهية وكان شبيها بابن عمه البابا إنوسنت الثالث فيما امتاز به من عقلية قانونية ، وما اتصف به من نقشف دفعه إلى كره شخصية الإمبراطور فريدريك الثانى ، ورفض تعيده الصليبى . ولم يتحمل تلكؤ الإمبراطور فى القيام بحملته إلى الشرق ، فبادر بقطعه من الكنيسة فى نوفمبر ١٢٢٧ م ، أنظر :

Runciman, History of the Crusades, vol. 3, 178

(٣) انقسم الفرنج فى مملكة بيت المقدس على أنفسهم منذ عقد الصلح بينهم وبين الكامل فريدريك . فبينما أيد البيزانية وفرسان التيوتون هذه الاتفاقية ، عارضها بارونات المملكة بقيادة إبلين ، كما عارضها

والتفسير الوحيد لكل ذلك ، هو أن العلاقات بين الصليبيين والمسلمين فى مصر وبلاد الشام كانت تحسمها وتشكلها ـــ خاصة من جانب السلطان الأيوبى ـــ إتفاقية يافا (١٢٢٩ م/٦٢٦ هـ) التى عقدت بين الإمبراطور فريدريك الثانى والسلطان الكامل[١] . وكان الكامل ملتزما إلى حد كبير ببنود هذه الإتفاقية التى رأى أنها كانت فى صالحه تماما[٢] . ومن جهة أخرى فإن البابا الذى كان على خلاف دائم مع الإمبراطور ، كان على دراية تامة بطبيعة العلاقات بين فريدريك والكامل[٣] ، ويدرك تماما أن حسن هذه العلاقات هو

= الدارية والإسبتارية . كما عارض البارونات وجود بيشارد فيلانجيرى منوب الإمبراطور فى المملكة واستيلاء الأخير على بيروت وشكل البارونات فى عكا قوميا لمقاومة السلطة الإمبراطورية . واستمر النزاع بين الطرفين حتى عام ١٢٤٣ م . انظر :

P.W. Edbury, The Ibelins Counts of Jaffa, in E.H.R., vol. 89, 1974, pp. 604-610.

(١) Historia Diplomatica Friderici Secundi, ed. Huillard Breholles, 7 vols., Paris, 1852-61, vol. 3, pp. 86-87.

(٢) كما يذكر سبط ابن الجوزى فقد رد الكامل على اعتراض المسلمين على اتفاقيته مع فريدريك بأنه لم يتنازل للفرنج إلا على « كناكس إبادر خراب ، والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم ، وولاة المسلمون متحكم فى الأعمال والضياع » . وكما يرى ابن واصل فإن الكامل ، رأى أن يرضى الفرنج بمدينة القدس خرابا ويبادهم مدة ، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء » . أنظر : سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، قسم ٢ ، ص ٦٥٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٢٤٢ ؛ العينى (بدر الدين) : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، جـ ٢٣ ، رقم ٨٣٠٣ ، جـ ٢١ ، ورقة ٢١٢ وما بعدها .

(٣) استمرت العلاقة بين الإمبراطور فريدريك وسلاطين الأيوبيين حتى موت الإمبراطور نفسه (١٢٥٠ م) . وكان سفراء السلطان الأيوبى دائمى الظهور فى بلاط الإمبراطور . وكان تبادل الهدايا بين السلطان والإمبراطور من مظاهر التودد بينهما . ففى عام ١٢٣٢ م/٦٣٠ هـ بعث الكامل إلى الإمبراطور الخيل بحليه خيمه بديعة الصنع ، بين فيها الداخلية حركة النجوم فى السماء . وورد الإمبراطور على هدية السلطان بأن أهداه دبا قطبيا . وفى نفس العام أقام الإمبراطور مأدبة لسفراء السلطان فى بلاطه بمناسبة عيد الأضحى . وليس أدل على قوة الارتباط القائم بين الإمبراطور والسلطان من قول فريدريك نفسه « إن صديقى السلطان المسلم أثق لدى من أى شخص آخر ماعدا ولدى الملك كونراد ، الذى كان لا بد أن يردده أمام أصدقائه . أنظر :

Chronica Regia Coloniensis, in M.G.H., in usum scolarum, p. 263

وقد أفرد الدكتور سعيد عاشور بحثا وافيا عن علاقات فريدريك بنى أيوب . أنظر : سعيد عاشور الإمبراطور فريدريك الثانى والشرق العربى ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٧ م ، ص ١١١ـ١٢٩

الحاجز الذى لا يمكن تخطيه بينه وبين السلطان الأيوبى . فنراه حين تضطره الظروف إلى الإسهام فى إتمام عمليات فداء الأسرى الفرنج لدى المسلمين — وبالرغم من تعدد الرسائل التى بعث بها البابا إلى حكام مصر والشام من بنى أيوب — فإنه يكتفى حكام الصليبيين فى قبرص والشام بإجراء المفاوضات مع الأيوبيين بهذا الشأن[1] مفضلا عدم القيام بذلك بنفسه ، مما يوحى بأنه مدرك تماما لمدى تأثير العلاقات بين فريدريك والكامل فى إفشال محاولته التفاوض مع السلطان الأيوبى بشأن أمر يخص الفرنج فى بلاد الشام ، وهذا ما ستؤكده الصفحات التالية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن العلاقات بين البابا والإمبراطور — فى ذلك الوقت — كانت قد تحسنت بعقد صلح سان جرمان St. Germano (٢٣ يوليو ١٢٣٠ م) بين الطرفين ، الأمر الذى قوى من سلطة فريدريك فى المملكة الصليبية فى بلاد الشام . وبقى البابا حريصا على أن لا يتجاهل كون فريدريك ملكا « فعليا » "de Facto" لمملكة بيت المقدس[2] . وإذا كانت هناك فرصة للتفاوض مع المسلمين بشأن صليبى الشام ، فلابد وأن تكون عن طريق فريدريك ، الذى من المؤكد أنه يفضل السلطان الأيوبى — صديقه — التفاوض معه عن التفاوض مع البابا . لهذا كله اقتصر خطاب البابا جريجورى التاسع إلى السلطان الأيوبى الكامل محمد على الاهتمام بأحوال التجار الإيطاليين فى الأسكندرية دون الإهتمام بأحوال فرنج الشام[3] .

---

(١) فى ٢٣ ديسمبر ١٢٣٧ م / ٣ جمادى الأول ٦٣٥ هـ بعث البابا جريجورى التاسع بخطابات إلى كل من هنرى الأول ملك قبرص وجيرولد بطريرك بيت المقدس وبهيمند الخامس أمير أنطاكية يطلب منهم السعى لإطلاق سراح فرسان الداوية الذين أسرهم مسلمو حلب بدمياط حين حاول الصليبيون فتح حصن دمياط فى يونيو من نفس السنة . أنظر :

Gregory IX, Pope Registres, vol. 2, no. 3991 92,96; p. 833 Albrec des Trois Fountaines, Chronicon, in M.G His., vol. XXII, p. 942

(٢) تمخض هذا الصلح عن البابا فى الحرمان عن مدينة بيت المقدس وإلغاء طرد الذى كان قد أصدره البطريرك جيرولد فى حق فريدريك . وبذلك اعترفت الكنيسة بسلطة فريدريك كحاكم للمملكة الصليبية فى الشام بدلا عن نيابة كونراد . أنظر

Historia Diplomatica Friderici Secundi, p. 101; Fracles, p. 374, C.F. Also, J. Richard, The Latin Kingdom, vol. 2, p. 213; Riley, Smith, The Feudal Nobility, p. 167.

(٣) لم يقف فى المصادر الإسلامية أو اللاتينية على ما يفيد تنبيه السلطان الكامل لطلب البا

البابا إنوسنت الرابع

وإذا كان تأثير اتفاقية يافا (١٢٢٩ م/٦٢٧ هـ) على العلاقات بين الصليبيين والمسلمين فى بلاد الشام[١] قد دام لمدة عشر سنوات نعم خلالها الطرفان بالأمان الذى منح كلا منهما الفرصة للتفرغ لخلافاته الداخلية[٢]، وإذا كان لهذه الإتفاقية ، ولما قام به فريدريك والكامل من علاقات خاصة ، تأثير على تحديد طبيعة العلاقات بين البابوية والأيوبيين ، فان هذا التأثير استمر حتى نهاية الدولة الأيوبية[٣].

---

(١) اقتصرت الاتفاقية على المملكة الصليبية دون أن تشمل امارة أنطاكية وكونتية طرابلس بما تضمناه من أملاك لجماعتى الداوية والاسبتارية المتاولتين للأمبراطور . أنظر :

Historia Diplomatica Friderici Secundi, vol. 1, pp. 86-87.

(٢) تداخلت الخلافات الداخلية على الجانبين الصليبى والإسلامى بعد رحيل الإمبراطور إلى غرب أوروبا . فقد قامت الحرب الأهلية بين نواب الإمبراطور فى قبرص وعكا وبين آل إبلين ، واستمرت المرحلة الأولى منها حتى عام ١٢٣٩ م/٦٣٤ هـ ، وتورط فيها كل نبلاء الفرنج فى الشام إلى جانب حلفائهم المحليين أو الجالية الإيطالية أما على الجانب الإسلامى . فقد بدأت النزاعات باتفاق الكامل والأشرف على اقتسام أملاك الناصر داود بن أخيهما المعظم عيسى فى دمشق وانتهى الأمر بسيطرة الأشرف على دمشق والكامل على الجزيرة الأمر الذى تخوف منه بقية أقارب السلطان فى الشام وتحالف الأيوبيون فى حلب ودمشق وحمص مع صلاح الروم ضد الكامل ، الذى مات فى مدرس ١٢٣٨ م/رجب ٦٣٥ هـ تاركا الدولة الأيوبية منقسمة على نفسها وتركز الصراع بين ابنه الصالح نجم الدين أيوب فى مصر ، وعمه الصالح إسماعيل فى دمشق أنظر العسقلانى (عز الدين) . شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، ورقة ٨٦ ب ــ ٨٨ ب ؛ ابن واصل مفرج الكروب ، جد ٥ . صفحات متفرقة ؛ ابى العميد أخبار الأيوبيين ، ص ١٣٩ــ١٤٨ . ابو الفدا (الملك المؤيد) المختصر فى أخبار البشر ، جد ٤ . القاهرة ، المطبعة الحسينية ، ١٣٢٥ هـ ، جد ٣٦٣ ؛ ابن العديم ، كمال الدين : بغية الطلب من تاريخ حلب ، جد ٣ ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ، ١٩٥١ ، جد ٣ ، صفحات متفرقة . جمع أيضا

Gestes des Chiprois, in R.H.C.-Doc. Arm., vol. 2, pp. 700 ff. Amadi, Chroniques d'Cypre d'Amadi et de Strambaldi, ed. R. de Mas Latrie, 2 toms., Paris, 1891-93, t. 1, pp. 123-124; Eracles, pp. 361, 386-407. C.F also, G.A., Hill, A History of Cyprus, vols. 3, Combridge, 1948, vol. 3, pp. 143-154

(٣) استمر الوفاق بين فريدريك والكامل حتى عهد مانفريد ابن فريدريك (١٢٥٨ــ١٢٦٦ م) وكانت السفارات متبادلة بين الطرفين . وخير ما يعبر عن هذه السفارات تلك التى خرج فيها مؤرخنا ابن واصل مندوبا عن السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى بلاط مانفريد فى عام ١٢٦١ م/٦٥٩ هـ ، حيث شهد إقامة صلاة الجمعة فى إحدى مدن مانفريد التى يسكنها مسلمون من صقلية منذ عهد فريدريك . أنظر : ابن واصل : مفرج الكروب جد ٤ ، ص ٢٤٨ .

وبالرغم من ذلك ، فقد واصل البابا انوسنت الرابع (١٢٤٣ــ١٢٥٤ م) محاولات اسلافه من رؤساء الكنيسة الغربية فى التفاوض مع سلاطين الأيوبيين لصالح فرنج الشام . ولم يدرك هذا البابا ما أدركه سلفه (جريجورى التاسع) من تأثير العلاقات بين الامبراطور والسلطان . وبما أدرك إنوسنت هذا التأثير ، ولكنه حاول تخطى الحاجز الذى تشكله هذه العلاقات بين البابوية والأيوبيين ، وأن للبابا فى ذلك دوافعه . فبعد أن اعتلى إنوسنت الرابع الكرسى البابوى ، ووجد أن موقفه أمام الأمبراطور غاية فى الحرج[1] كان موقف فرنج الشام أكثر حرجا . فقد انتهى أمد المعاهدة بين الأيوبيين وفريدريك فى عام ١٢٣٩ م/٦٣٧ هـ ، وانتهت معه فترة السلم بين المسلمين والصليبيين . ولتزامن انتهاء فترة الهدنة ، ووصول حملتى تيبالدكونت شامبانيا Tibald of Champange (أول سبتمبر ١٢٣٩ م/ ٣٠ محرم ٦٣٧ هـ) وريتشارد كورنوول Richard Cornwall (١١ أكتوبر ١٢٤٠ م/٢٢ ربيع أول ٦٣٨ هـ) إلى بلاد الشام[2] ، مع نشوب الخلافات بين بنى أيوب فى مصر والشام[3] ، تمكن الصليبيون من استرداد ما يفوق كل ما تنازل عنه الكامل

---

(١) بالرغم من أن مساعى فريدريك الثانى هى التى أجبرت البابا إنوسنت الرابع على منصبه البابوى إلا أن الأخير اكتشف أن عليه اتباع سياسة سلفه جريجورى التاسع ضد الإمبراطورية . وأخيرا هرب من روما إلى ليون بفرنسا فى نهاية عام ١٢٤٤ م أمام تهديد أتباع الامبراطور فى إيطاليا له . أنظر :

R.H.C. Davis, A History of Medieval Europe p. 375, John L.A Manie, The world of the Middle Ages. p. 426.

(٢) Eracles, pp. 413-418; Rothelin, Commotion de Guillaume de Tyre de 1229-1261. Dit du Manuscrit de Rothelin, in R.H.C.-Hocc., vol. 2, p. 528. Matthew Paris, Chronica Majora, ed. H.R. Laurd, in R.S., vols. 7. London, 1872-82, vol. 4, p. 139

(٣) تولى السلطنة الأيوبية بعد موت الكامل ابنه العادل الثانى . وتسمى ابنه الثانى الصالح نجم الدين أيوب على دمشق من عمه الصالح إسماعيل فى يناير ١٢٣٩ م جمادى الآخر ٦٣٦ هـ ، ليستردها الأخير فى سبتمبر ١٢٣٩ م صفر ٦٣٧ هـ . فتحالف الصالح أيوب مع الناصر داود صاحب الكرك وتسمى الأول على مصر من أخيه العادل الثانى فى ١٩ يونيه ١٢٣٩ م ٢٤ ذى القعدة ٦٣٧ هـ ، ولم يهنأ له على طلبه حتى استعاد دمشق من عمه الصالح إسماعيل هذه المرة . أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٢٠٣ــ٢٠٤ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، قسم ٢ ، ص ٧٢٨ــ٧٢٩ ؛ ابن العميد ، أخبار الأمم ، ص ١٤٤ ؛ الصمدى ، نزهة الناظر فى الملوك الذين تقلدوا مصر من أهل مصر من ملوك ، محفوظ بمكتبة المتحف البريطانى رقم ٢٣٣٢٦ ، ورقة ٥٩ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٩٩ .

لفريدريك من عشر سنوات مضت وأثار ضده العالم الإسلامي[1] . إلا أن ما حققه الصليبيون من مكاسب لم يكن يضمن لهم الأمان ، لانقسامهم على أنفسهم ، ووصل بهم الأمر إلى حد التقاتل فى شوارع عكا وصور ، الأمر الذى كان ينذر بالخطر[2] . وسرعان ما وصلت أنباء الشقاق بين صفوف الصليبيين إلى أوروبا[3] .

ولابد أن أحوال الفرنج فى بلاد الشام قد أثارت مخاوف البابا إنوسنت الرابع . فلم يكن باستطاعته أن يبعث بحملة صليبية إلى الشرق فى ذلك الوقت . وربما يحدث تضافر مفاجىء بين بنى أيوب فى مصر والشام من شأنه أن يعصف بما تبقى من رمق فى الجسد الصليبى المنهار فى المنطقة . وحتى يتسع المجال لاستعمال القوة المسلحة ضد المسلمين ، رأى البابا أنه من الأفضل أن يتبع الأساليب الدبلوماسية مع سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب . وربما كان مبعث الأمل لدى البابا فى نجاح مساعيه لدى السلطان ما وصله من أنباء تفيد

---

(١) بناء على الإتفاقية النهائية التى عقدها الصالح أيوب مع بيشارد كورنيول ، أخذ الفرنج بيت المقدس وبيت لحم وبعض يافا وعسقلان وشقيف أرنون وإقليم الجليل بما فيه من حصون مثل تبنين وهونين وكوكب والطور وطبرية . ولم يذكر هذه الاتفاقية من بين المؤرخين المسلمين سوى ابن أيبك ، إلا أنه جعل الفرنج مناصفة القدس وكل من صفد وطبرية وهونين فقط . أنظر : ابن أيبك الدوادارى : الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، ، وهو الجزء السابع من كنز الدرر وجامع الغرر ، ، تحقيق الدكتور سعيد عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٣٤٥ ، الهوبرى الكندى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، حـ ٥٥ ، تصوير خمس ، حد ٢٧ ، ورقم ٧٩ وما بعدها . اجمع أيضا .

(٢) Eracles, pp. 241-411; Rothelin, pp. 555-556; Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 139-145

(٣) تضاربت مصالح جماعتى الداوية والاسبتارية ، وتورط فى الخلاف كل طوائف الفرنج فى الشام . وتواصل الداوية اعتداءاتهم على المسلمين ، ورفضوا الاعتراف بهدنة كورنيول مع السلطان بينما رأى الإسبتارية عكس ذلك . وحاول فيلا نوفى نائب الإمبراطور أن يستفيد من ذلك الخلاف ، واتخذ جانب الاسبتارية . ولكنه فشل فى الاستيلاء على عكا أو الاحتفاظ بقلعة صور لتحالف الجنوية والبندقية وبارونات المملكة وقومص عكا ضده . وحلت أليس ملكة قبرص محل فريدريك وابنه كونراد فى الوصاية على المملكة الصليبية . ولم ينته القتال بين الطرفين إلا أبى سنة ١٢٤٣ م/ذى الحجة ٦٤٠ هـ . أنظر :

Ann. T.S., ed. R. Rohricht et G. Raynaud, in A.O.L., vol. 2, p. 441; Eracles, p. 423. C. Enlso, Rumcinian, vol. 3, pp. 220f; Ryccardus de San. Germano, Chronicon, col 1050; Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, p. 197

بتسابق كل من الصالح أيوب من جهة وعمه الصالح اسماعيل ملك دمشق وحلفائه في الكرك وحمص من جهة أخرى ، على عقد الصلح مع الفرنج ، كل لحسابه الخاص . وعقد صليبو المملكة الرأى على اختيار جانب الصالح إسماعيل ، وعقدوا معه الاتفاق في أواسط عام ١٢٤٣ م/أوائل عام ٦٤١ هـ[١] . وربما خشي البابا أن يكون رد فعل الصالح أيوب تجاه تحالف الصليبيين مع أمراء الشام الأيوبيين ، ضار بالمملكة الصليبية . وربما رأى البابا أن السلطان الأيوبي سيسارع إلى الإستجابة له إذا ما تفاوض معه بشأن فرنج الشام ، حيث سينحول تحالف هؤلاء مع مناوئي السلطان من بني عمومته إلى تحالف معه هو . وإذا ما استجاب السلطان لما سيدعوه إليه البابا ، فإن إينوسنت سيكون قد كسب الوقت ، ونجح بالدبلوماسية في مهادنة السلطان ، وضمن الأمان للمملكة الصليبية التي أنهكتها صراعات الفرنج فيها ، حتى يحين الوقت الذي تحل فيه القوة المسلحة محل الدبلوماسية ، مع ملاحظة أن الحديث عن حملة عسكرية جديدة يقوم بها الغرب الأوروبي ضد الشرق الأدنى الإسلامي كانت تحكمه اعتبارات عديدة تتعلق بتوازن القوى وقتها في الصراع بين الطرفين ، وكذلك الأحوال السائدة في كل من العالمين الإسلامي والمسيحي .

على أية حال ، من هذا المنطلق بعث البابا إينوسنت الرابع برسالة إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب يدعوه فيها إلى عقد هدنة مع الصليبيين في بلاد الشام ، وأن يعمل على أن يحل السلام بين الطرفين محل الصراع . وفي الحقيقة لم

---

(١) جاء ذلك في الرسالة التي بعث بها أرمان بيجورد Armand de perigord مقدم الداوية و ١٢٣٢—١٢٤٤ م) إلى زميله روبرت سانفورد Robert Sandford في خريف عام ١٢٤٣ م ٦٤١ هـ ، التي أورد المؤرخ متى الباريسي . أنظر :

Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 289-289.

فقد صالح الصالح أيوب ملكه مراد جماعة الداوية الذين رفضوا التحالف مع الصالح إسماعيل بعض هم بلاد أمراء الشام في حمص ودمشق والأردن . وقد تمت المفاوضات الإسلامية بين مساعي الصالح أيوب إلى التحالف مع الفرنج ، وقد تمت تلك المفاوضات بين زميله ومقدمي تحالف الفرنج مع أمراء الشام الأيوبيين ، ضمه الصليبيون بيت المقدس وطلبه وعسقلان وطبرية . إلا أن الصالح إسماعيل تم ج جزء من أراضي مصر ، وما يتيسر له من أحدهما من السلطنة . وقد شاهد الفرنج أن الوصول نفسه ما قام به الفرنج من إعادة تحريرات مدينة بيت المقدس عام ١٢٤٣ م ، وما في طريقه إلى مصر في عام ١٢٤٣ م ، ثم حجه ٦٤٢ هـ أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٣٢—٣٣٣

نقف على نص هذه الرسالة فى أى مصدر تاريخى ، كما لم تتضمنها السجلات الخاصة بهذا البابا . وكل ما نعرفه عنها ، وعن فحواها يتضح لنا بالإطلاع على نص الرسالة التى رد بها السلطان على البابا فى منتصف عام ١٢٤٥ م/أول عام ٦٤٣ هـ[1] .

فسرعان ما اندلعت الحرب بين السلطان الأيوبى وعمه الصالح إسماعيل ، ولكن خلافات بنى أيوب التى كانت ميزة للفرنج فى عام ١٢٤١ م/٦٣٨ هـ ، أصبحت وبالا عليهم فى عام ١٢٤٤ م/٦٤٢ هـ[2] فبتورط صليبيو مملكة بيت المقدس فى هذه الخلافات ، ضاعت منهم مدينة بيت المقدس إلى الأبد ، وضاع معها كل ما حققته الدبلوماسية من قبل ، ودُمِّر الجيش الصليبى كله فى موقعة غزة (الاثنين ١٧ أكتوبر ١٢٤٤ م/١٤ جمادى الأولى ٦٤٢)[3] . وبعد أن استتبت الأمور للسلطان الصالح أيوب ، وأصبح هو سيد الموقف فى مصر والشام[4] ، قام بالرد على رسالة البابا من منطلق القوة ، وذلك فى ٤ يونيه ١٢٤٥ م/٧ محرم ٦٤٣ هـ . وفى رده على البابا ، ووفقا للعرف الدبلوماسى ، بدأ السلطان خطابه باستصوابه

---

(١) أنظر ملحق رقم (٤) بآخر البحث .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٠٤٢ .

(٣) إزاء تحالف الفرنج مع الصالح إسماعيل وبقية الأمراء الأيوبيين بالشام ، استعان السلطان الصالح أيوب بالخوارزمية الذين اندفعوا من إقليم الجزيرة إلى بلاد الشام ، مدمرين كل ما صادفهم فى طريقهم إلى فلسطين ، واقتحموا مدينة بيت المقدس فى ٢٣ أغسطس ١٢٤٤ م/١٥ ربيع أول ٦٤٢ هـ ، وانتزعوها من الفرنج بعد أن بذلوا فيهم السيف . ثم تلى ذلك موقعة غزة التى تقابل فيها جيش السلطان وقوات الخوارزمية مع قوات الفرنج ودمشق وحمص والكرك ، وكانت كاثبة الصليبيين . أنظر : سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، قسم ٢ ، ص ٧٤٤—٧٤٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٣٣٧ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٥٣—٣٥٤ . راجع أيضا : أسامة ركى بك . الخوارزمية ودورهم فى الصراع الصليبى الإسلامى فى عصر بنى أيوب ، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، العدد ٣٠ ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ م ، ص ١٦٨ ، وما بعدها . راجع أيضا :

Eracles, pp. 429-431; Chronica Salembene, in M.G H.ss., vol. 42, p. 177; Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 307-311.

(٤) بعد موقعة غزة أخضع الصالح أيوب مناطق من أمراء الشام الأيوبيين الذين تحالفوا مع الفرنج ضده ، وتلا ذلك بالإستيلاء على أملاكهم فى الكرك ودمشق ثم قضى على الخوارزمية . وفى ١٢٥٧ م/٦٥٥ هـ أخذ من الفرنج عسقلان وطبريه فى الوقت الذى كان سكان عكا يفكرون الخروج من مدينتهم كما يذكر متى الباريزى . أنظر : سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، قسم ٢ ، ص ٧٥٢ ، ٧٦٢ ، ٧٦٦ ، ٧٧٠ ؛ ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٦—١٥٧ . راجع أيضا :

Matthew Paris, Chronica Maiora, vol. 4, p. 337; Ann. T.S., 441; C. Cahen, La Syrie de Nord, Paris, 1950, p. 648.

لرغبة البابا فى إحلال السلام بين المسلمين والصليبيين ، الأمر الذى لا يعارضه السلطان ، بل يرحب فى تحقيقه أيضا . ولكن السلطان يتبع ذلك بأن أكد للبابا أنه بمقتضى ما عقد بين والده الملك الكامل محمد وبين الإمبراطور فريدريك الثانى من اتفاق (اتفاقية يافا ١٢٢٩ م/٦٢٧ هـ) ، فإن الصالح أيوب لا يتعين له التفاوض حول أى أمر يخص فرنج الشام إلا من خلال الإمبراطور نفسه . ثم يُعْلِم السلطان بابا روما أن الخطاب الذى تسلمه السلطان قد بعث به إلى السفير المصرى فى بلاد فريدريك ، ليطلع الأخير على مطالب البابا . وأن التعليمات قد صدرت إلى هذا السفير بأن يتوجه إلى مقر البابا فى مدينة ليون بفرنسا ، ويعرض عليه ما تم التوصل إليه مع الإمبراطور بشأن ذلك ، ثم يعود السفير إلى مصر ليعلم السلطان برأى البابا(١) .

ولا تذكر المصادر التاريخية ما يفيد بأنه قد تم عقد أية هدنة أو اتفاقية سلام بين الصليبيين والمسلمين فى بلاد الشام قبل سبع سنوات منذ حرر الصالح أيوب رده على رسالة البابا ، وكان ذلك بعد نهاية عهد بنى أيوب(٢) . وهكذا فشلت مساعى البابا إنوسنت الرابع فى التفاوض مع السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين بشأن فرنج الشام . وكان السبب فى ذلك هو نفس السبب الذى حدا بالبابا جريجورى التاسع إلى أن ينأى عن مخاطبة السلطان الكامل من قبل فى ذلك الشأن ، وهو ما قام من علاقات بين السلاطين الأيوبيين وبين الإمبراطور فريدريك الثانى منافس البابا والكنيسة آنذاك (٣) . ولما رأى البابا فى علاقات الإمبراطور

---

(١) أورد نص هذه الرسالة متى الباريزى ونشر صورة مطابقة له كل من رودنبرج وبريجولز ، وأشار لها بإيجاز كل من هرشت وبرجر . أنظر :

Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 565-568; Rodenberg, Epistolae Saeculi, vol. 1, no. 123, pp. 86-88; H. Breeholles, Historia Diplomatica, vol. 6, pp. 423-429; Rohricht, Regesta, no. 1142, p. 302; Berger, Registres d'Innocent IV (Bibliothque des Ecoles Francaises d'Athenes et de Rome, Ser. 2), vols. 4, Paris, 1884-1921, vol. 3, no. 1994, p. 296.

(٢) وهى الإتفاقية التى عقدها لويس التاسع مع المماليك فى عام ١٢٥٢ م بيع أول ٦٥٠ هـ . أنظر : جوزيف نسيم يوسف : الغزو الصليبى على بلاد الشام ، هدنه لويس التاسع فى الأراضى المقدسة ، الأسكندرية ١٩٨٤ م ، ص ١٧١ وما بعدها

(٣) بنفس المدد الذى مد به الصالح أيوب على طلب البابا إنوسنت الرابع ، نفس السلطان مساعى جماعتى الدعوة والإستشهاد التابعة لأتباع بعلالهيه الذين وقعوا فى أسر السلطان فى موقعة غزة ، وشرط السلطان لتسديد طلبهم أن يتدخل الإمبراطور فريدريك بنفسه عليه ، ولما تم ذلك ، فإن السلطان أيضا استجاب

والسلطان الأيوبى عائقا لمساعيه من أجل تعضيد موقف الصليبيين فى بلاد الشام فقد أضيفت تلك العلاقات إلى الأسباب التى دعت البابا إلى إصدار قرار الحرمان ضد الإمبراطور ـــ خلال المسيحية ـــ فى مؤتمر ليون الكنسى[1] .

هذا وعن محاولة البابا إنوسنت الرابع مساعدة الصليبيين فى بلاد الشام قدر استطاعته ، متبعا فى ذلك أسلوب المفاوضات مع السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى مصر ، مهادنة له وكسبا للوقت ـــ شأنه فى ذلك شأن كل من البابا لوكيوس الثالث والبابا إنوسنت الثالث ـــ حتى يتسنى له حثّ ملوك الغرب الأوروبى على الخروج فى حملة صليبية تحقق الاستقرار والأمن لركائز أوروبا فى الشرق الأدنى الإسلامى ، إن لم تستطع استرداد ما ضاع منها فى عهد صلاح الدين الأيوبى . ولما فشلت مساعى البابا ، فلم يتبق أمامه ـــ وأمام فرنج الشام ـــ سوى انتظار خروج الملك الفرنسى لويس التاسع فى حملته وفاء لنذره المشهور[2] .

إلا أنه يتعلق برسالة البابا إنوسنت الرابع ، ويرد السلطان الصالح أيوب مشكلة تحديد متى بعث البابا برسالته إلى السلطان ، ومتى تم تحرير رد السلطان عليها ، الأمر الذى اختلف حوله المؤرخون الحديثون .

وبالنسبة لرسالة البابا ، فلأنه لم يتعين الوقوف على نص هذه الرسالة فى أى من المصادر التاريخية ، فلم يشر أى من المؤرخين الحديثين إلى التاريخ الذى أرسل فيه البابا العاهل الأيوبى . وربما يتراءى للوهلة الأولى ، أنه من الأنسب أن يكون البابا قد قام بمراسلة السلطان بعد اندحار الجيش الصليبى كله فى موقعة غزة وعدده يبلغ عشرين ألف سيادة إسلامية ، وخلو المملكة الصليبية من غالبية قادتها وذلك فى موقعة غزة (١٧ أكتوبر ١٢٤٤ م/١٤ جماد أول ٦٤٢ هـ)[3]

هـ ـ يتعلق مشروع هؤلاء ... وبالطبع م ... الدانيه والإسبانية ـــ بتعاون ... مع ... بعد نصح ... بمصر

Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, p. 526

(1) Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 470-85

(2) J. Richard, La politique Orientale de Saint Louis: La croisade de 1248, Paris, 1978, p. 58

(3) يشير ... هذه الهزيمة من الفرنج سوى ... بيت المقدس وحليف موسكوبيت مع ١٨ فارسا من الداويه و ١٦ فارسا من ... سايه و ٣ فرسان من التيوتون . وقد سقط هؤلاء الفرسان الذين وصلوا إلى غزة

إلا أن أول نبأ يصل إلى البابا عن الكارثة التي حلت بفرنج الشام كانت تلك الرسالة التي بعث بها روبرت أوف نانتيس Robert of Nantes بطريرك بيت المقدس (١٢٤٠ــ١٢٥٤ م) إلى البابا مستغيثا به لإتخاذ الإجراءات التي تكفل نجدة الفرنج . وقد حمل هذه الرسالة جالبران Galerand أسقف بيروت (١٢٤٤ــ١٢٤٥ م) . وحررت في ٢٥ نوفمبر ١٢٤٤ م/٢٢ جمادى الآخرة ٦٤٢ هـ . وقد أبحر رسول البطريرك ، كما يذكر متى الباريزى الذى أورد نص الرسالة ، بصحبة بطريرك أنطاكية ألبرت دى ريزاتو Albert de Rizato (١٢٢٧ــ١٢٤٦ م) ، بعد يومين من تحريرها ، ووصلت البعثة إلى مدينة البندقية في ٢٥ مايو ١٢٤٥ م/٢٧ ذى الحجة ٦٤٢ هـ[1] . وحين قابل هؤلاء البابا في مدينة ليون ــ مقره المؤقت بعد طرده من روما على أيدى أتباع الإمبراطور ــ كان البابا على وشك عقد مؤتمر ليون الكنسى (٢٨ يونيو ــ ١٧ يوليو ١٢٤٥ م) . لذلك فمن المستبعد أن يكون البابا قد علم بما حل بالصليبيين من كوارث قبل شهر يونيو ١٢٤٥ م/محرم ٦٤٣ هـ ، ومن المستبعد أيضا أن يكون قد راسل السلطان الأيوبى بعد موقعة غزة ، وإنما في مستهل عام ١٢٤٤ م/أواسط عام ٦٤١ هـ ، بعد أن علم بأنباء الشقاق بين الأيوبيين في مصر والشام ، وتحالف الفرنج مع الصالح إسماعيل ملك دمشق ضد السلطان الصالح أيوب في مصر .

هذا عن تاريخ مراسلة البابا إنوسنت الرابع للسلطان الأيوبى الصالح نجم الدين . أما عن تاريخ تحرير رد السلطان على البابا ، فإن كل النصوص التي وقفنا عليها لرسالة السلطان إلى البابا تشير إلى أن هذه الرسالة قد حررت في اليوم السابع من شهر محرم دون ذكر للسنة الهجرية التي تضمنت هذا الشهر[2] ولما

| = صيحة اليوم التالى للمعركة عدد قتلى الفرنج بأكثر من ٣٠ ألف مقتل إلى جانب ٨٠٠ أسير نقلوا إلى مصر . أنظر : سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، قسم ٢ ، ص ٧٤٤ــ٧٤٦ . راجع أيضا :

Eracles, pp. 429-431; Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 307-311; Chronica Salemberne, in M.G.H.ss., vol. 32, p. 177.

ومن عدد أسرى وقتلى جماعة التيوتون ، أنظر : حسن عبد الوهاب : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضى المقدسة ، الأسكندرية ١٩٨٩ ، ص ٢٥٢ .

(١) Annales de Burton, ed. H.R. Luard, in Annales Monastici I (R.S. 36), London, 1864, pp. 257-263; Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 337-345

(٢) انظر ما سبق ، ص ٢٤٣ حاشية رقم (١) . راجع أيضا ملحق رقم ٤ بآخر البحث

أورد المؤرخ الإنجليزى متى الباريزى ، الذى كان على علم تام بما جرى فى الشرق من أحداث[1] ، نص رسالة الصالح أيوب ضمن ما أورده من أحداث عام ١٢٤٦ م/٦٤٤ هـ ، فقد أخذ بذلك كل من رهرشت وبرخرويرسولز الذين رجعوا إلى نص متى الباريزى . وإذا كان الأمر كذلك فإن رد السلطان على رسالة البابا يكون قد دون فى ٢٥ مايو ١٢٤٦ م/٧ محرم ٦٤٤ هـ . إلا أن هذا التاريخ يفتقر إلى الدقة . وربما كان لإعتماد هؤلاء المؤرخين الحديثين — فيما يخص العلاقات بين البابا والسلطان والإمبراطور أيضا — كلية على حولية متى الباريزى ، أثر كبير فى عدم توفيقهم فى تحديد التاريخ الصحيح الذى حرر فيه السلطان رسالته .

فإذا رجعنا إلى بيان البابا نفسه ، والذى أصدر فيه قرار الحرمان ضد الإمبراطور فى ختام اجتماعات مؤتمر ليون الكنسى (٢٨ يونيو — ١٧ يوليو ١٢٤٥ م/غرة صفر — ٢١ صفر ٦٤٣ هـ) ، نجد أن البابا يشير إلى خطاب السلطان الذى وصله عن طريق الإمبراطور . ولقد أورد متى الباريزى — ضمن أحداث عام ١٢٤٥ م/٦٤٣ هـ — نص بيان البابا ضد الإمبراطور . ومن المؤكد أن رجع إليه كثير من المؤرخين الحديثين . إلا أن هذا النص الذى أورده متى الباريزى قد سقط منه الجزء الذى أشار فيه البابا إلى خطاب السلطان بقوله (ومع هذا السلطان ، كان لفريدريك ، الذى تسلمنا عن طريقه خطاب السلطان ، علاقات أسرية وحب متبادل ووفاق تام ، منذ عهد والد هذا السلطان ...)[2] . ومن هنا لم يقف المؤرخون الحديثون ، الذين حددوا ٢٥ مايو ١٢٤٦ م/٧ محرم ٦٤٤ هـ تاريخا لتحرير رد السلطان على رسالة البابا ،

---

(١) اعتمد متى الباريزى ، راهب دير سان ألبان بإنجلترا ، فى جمع مادته التاريخية خاصة فيما يخص الأحداث منذ ١٢٣٦ م ٦٣٣ هـ على روايات من وفد من قرغ الشام إلى كنيسته ، وعلى ما كان يبعث به رجال الدينية والإسبتارية إلى مقدمى هاتين الجماعتين فى إنجلترا ، وعلى كل ما يبعث به حكام الإمارات الصليبية بالشام إلى بلاط الإنجليزى ، إلى جانب تقارير الموظفين الرسميين من الإنجليز ثم جاء الذين لرهبان من الدومنيكان والفرنسيسكان . أنظر

Antonia Gransden, Historical writing in England, vol. 2, pp. 156. Ff. Richard Vaughan, Matthew, Paris, Cambridge, 1958, pp. 59-60.

(٢) "Cum quo soldano dictus Fridericus, prout ipsius soldani literis nuper accepimus, a tempore patris eiusdem soldani Familiantatem et dilectionem mutuam et concordiam perfectam habere dinoscitur".

Rodenberg, Epistolae Saeculi, vol. 2, p. 88. أنظر

والذين رجعوا إلى نص بيان البابا ضد الإمبراطور عن متى الباريزى ، لم يقفوا على التاريخ الصحيح لتحرير رسالة السلطان . وإذا كان البابا قد أشار إلى خطاب السلطان إليه ، بعد أن تسلمه من الإمبراطور ، وهذا ما يؤكده السلطان بنفسه فى رسالته ، فإن البابا يكون قد تسلم خطاب الصالح أيوب قبيل انعقاد مؤتمر ليون فى ٢٨ يونيو ١٢٤٥ م/غرة صفر ٦٤٣ هـ . فلابد اذن أن يكون رد السلطان على رسالة البابا قد حرر فى عام ١٢٤٥ م/٦٤٣ هـ . وإذا كان خطاب السلطان يرتبط بالشهور العربية أكثر منه بالشهور المسيحية ، فإن غرة شهر محرم توافق يوم السبت ١٩ مايو ١٢٤٥ م ، بينما يوافق يوم ٧ محرم (يوم تحرير الخطاب) اليوم الرابع من يونيو من نفس السنة[1] . وبذلك يمكن الأخذ بأن التاريخ الصحيح الذى حرر فيه رد السلطان الصالح نجم الدين أيوب على رسالة البابا إنوسنت الرابع هو يوم الجمعة ٤ يونيو ١٢٤٥ م/٧ محرم ٦٤٣ هـ . وكان من السهل والاتصالات مستمرة بين السلطان والإمبراطور أن يصل الخطاب على وجه السرعة إلى بلاد فريدريك الذى يبعثه بدوره إلى البابا قبل انعقاد المؤتمر . ولما كان رد السلطان مخيبا لآمال البابا ، ولما وجد البابا أن ارتباط السلطان بمنافسة الإمبراطور هو سبب ذلك ، فقد كانت هذه العلاقة بين الصالح أيوب وفريدريك من ضمن الأسباب التى دفعت البابا إلى إصدار قرار الحرمان ضد الإمبراطور[2] .

وإذا كان البابا إنوسنت الرابع قد فشل بالدبلوماسية فى مهادنة السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين ، وفى مساعدة فرنج مملكة بيت المقدس على تجنب الخطر الإسلامى من مصر فى وقت انقسموا فيه على أنفسهم ، مما أضاع منهم المدينة المقدسة إلى الأبد للأسباب التى أسلفناها فانه لم ييأس ، وعاود الاتصال بالسلطان الأيوبى ، إن لم يكن لصالح الصليبيين ، فمن أجل القيام بواجبه كرئيس

---

(١) كان التاريخ الذى حدده بعض المؤرخين لخطاب السلطان إلى البابا هو أقرب التواريخ إلى الدقة . إلا أن بعض المؤرخين يجعل يوم الجمعة ٧ محرم ٦٤٣ يوافق ٣ يونيو ١٢٤٥ . وأخذ بهذا الرأى جاد يشار . أنظر :

Rodenberg, Epistolae Saeculi, t. 2, p. 86; J. Richard, The Latin Kingdoms, vol. 2, p. 336.

راجع أيضا : محمد عفيفى ، التوقيفات الإفرنجية ، ص ٢٢٢ .

(٢) Matthew paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 366-368.

للكنيسة الكاثوليكية نحو مدينة بيت المقدس التى لم يعد فى مقدور فرنج الشام ـــ بعد اندحارهم فى موقعة غزة ١٢٤٤ م/٦٤٢ هـ ـــ الدفاع عنها وهى فى أيدى المسلمين ، وفى وقت كان فيه مركز الثقل فى الصراع بين الطرفين يميل بقوة لصالح المسلمين . ففى ١٥ أغسطس ١٢٤٦ م/ ٣٠ ربيع أول ٦٤٤ هـ بعث السلطان الصالح أيوب برده على رسالة بعث بها إليه البابا إنوسنت الرابع يشكو فيها الإعتداءات التى وقعت على مدينة بيت المقدس بعد عودتها إلى حوزة المسلمين . ويؤكد السلطان فى رده على البابا أنه إذا كان شيئا من هذا قد حدث فإنه لم يكن له علم به ، وعندما توجه السلطان إلى الشام فإنه قد عاقب من قاموا بذلك[1] . وكانت شكوى البابا إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب هى آخر ما وقفنا عليه من اتصال بين بابوية روما والسلاطين الأيوبيين لصالح الفرنج فى بلاد الشام أو الأراضى المقدسة نفسها . فلم يلبث الغرب أن أرسل حملة لويس التاسع (١٢٤٨ م/٦٤٦ هـ) ، وعاد العداء مكشوفا بين المسلمين والصليبيين . وبالآمال المعقودة على ما يأمل الملك الفرنسى أن يحققه ، لم تكن هناك حاجة بالبابوية أن تعاود الإتصال بالسلاطين الأيوبيين . وبعد أن أفاق أهل الغرب من الصدمة الروحية والمعنوية التى سببها فشل حملة قام بها ملك وصل فى نظرهم إلى مرتبة القديسين[2] ، عقدت البابوية الآمال على وهم آخر ، شكله العداء التترى للإسلام ، وإكتساح التتار لأملاك المسلمين حتى حدود مصر[3] . وبقيام دولة

(١) نشر برجر نص رد السلطان على رسالة البابا ، وأشار إليه رهرشت . وبنا لم نقف على نص رسالة البابا ، وبنا لم يتضح من رد السلطان عليه ما يفيد التاريخ الذى يأمل فيه البابا السلطان ، فعلينا ـــ لتحديد ذلك ـــ أن نتبع سير الأحداث . ففى ١٢٤٥ م/٦٤٣ هـ ، وبعد أن رفض الصالح أيوب السماح للخوارزمية بدخول مصر ، ولم يكافأهم على تعاونهم معه ضد الفرنج وأمراء الشام الأيوبيين ، فقد أغاروا على كل مدن فلسطين قبل أن يهزمهم السلطان ويقضى على خطرهم فى عام ١٢٤٦ م/٦٤٤ هـ . ومن المؤكد أن تكررت انتهاكات الخوارزمية لمدن فلسطين فى بيت المقدس ، الأمر الذى أشار إليه البابا فى رسالته إلى السلطان . وبذلك يكون أنسب تاريخ لمراسلة البابا للسلطان هو عام ١٢٤٥ م/ ٦٤٣ هـ . أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٣٥٠ـــ٣٥١ ؛ المقريزى ، سلوك ، جـ ١ ، قسم ٢ ، ص ٣٢٤ ؛ وجع أيضا :

Berger, Régistres d'Innocent IV, vol. I, no. 3034, p. 455; Rohricht, Regesta no. 1144 p. 302

(٢) P. A. Throop, Criticism of Papal crusading policy in Old French and provencal, in Speculum, vol. 13, pp. 400-404.

(٣) Paul Meyvaert, An Unknown Letter of Hulagu, Il-khan of Persia to King Louis IX of France, in Viator, vol. 11, 1980, p. 243

المماليك وإزاحتهم للخطر المترى من بلاد الشام ، لم يكن من السهل على البابوية أن تجد الفرصة أو الظروف المهيأة للإتصال بسلاطين المماليك . فلم يكن من السهل فى الوقت ذاته أن يكون هؤلاء معتدين تجاه عدوين يواجهانهم فى وقت واحد ، التتار فى العراق ، والفرنج فى بلاد الشام(١) . ولم يكن هناك مفر من تقبل ما قُدِّر للوجود الصليبى فى ديار الإسلام من انتهاء . وبعد أن أدركت البابوية عدم جدوى الحرب ضد المسلمين ، كان عليها أن تلتمس طريقا آخر ، بروح جديدة ، وبنمط جديد . إلا أن ذلك لم يجعل من انجازات جودفرى دى بويون وبوهيمند النورماندى ومن حذفهما الا أسطرا فى كتب التاريخ .

---

(١) أدركت البابوية أنه من الصعب عليها مع تعايش دولة المماليك مع الصليبيين أن تظهر بمظهر القوى ، وصلت إلى أوروبا على أنه شهيد تقسوة تجاه أعدائه . وكان ذلك فى الحرب الذى بعث به ملك الظاهر ... أحد الأمراء المماليك فى عكا ... إلى البابا جريجورى العاشر (١٢٧١ـ١٢٧٦ م) بعد موت أحد المماليك من تسمم ، سجل إحبار البابا لرجع الصليبية فى هذا الحديث . انظر

William of Tripoli. Tractatus de Statu Saracenorum, ed. Hans Prutz in Kulturgeschichte der Kreuzzuge. Berlin, 1883. p. 587

الخاتمـــة :

لأن البابا أوربان الثانى لم يحدد مصير الأراضى التى يفتحها صليبيو الحملة الأولى ، فقد أضاف هؤلاء إلى هدف الحملة الذى حددته البابوية ـــ الإستيلاء على الأراضى المقدسة من المسلمين ـــ هدفاً آخرا . فأقاموا لأنفسهم ـــ ولغرب أوروبا ـــ ركائز فى ديار الإسلام . ولأنهم أقاموا فى بلاد الشام أكثر من مائتى عام ، تطورت خلالها أحوالهم نتيجة لدخول أطراف عديدة أخرى إلى دائرة الصراع الصليبى الإسلامى ، من بيزنطيين وأرمن وتتار ، فقد كانت الحروب الصليبية مجالا لقيام علاقات عديدة بين المسلمين وبين القوى الصليبية فى بلاد الشام وغرب أوروبا . فإلى جانب العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والدينية ، فقد كانت هناك ـــ وقبل كل شىء ـــ العلاقات السياسية التى تضمنت الحرب ، كما تضمنت الدبلوماسية فى ذات الوقت . وفى هذا المجال تمت اتصالات كثيرة بين حكام غرب أوروبا وبابوية روما من ناحية وبين حكام الشرق الأدنى الإسلامى من ناحية أخرى .

ولما حقق صليبيو الحملة الأولى انجازاتهم ـــ التى لم تحققها أى من الحملات الأخرى ـــ نتيجة لإنقسام الشرق الأدنى الإسلامى على نفسه سياسيا ومذهبيا . ولما لم تتحد الجبهة الإسلامية ضدهم بصورة كاملة حتى نهاية عهد نور الدين محمود ، فلم تكن هناك حاجة بفرنج الشام إلى اتباع الوسائل الدبلوماسية مع المسلمين . وتركوا انتصاراتهم وفظاظتهم لتعبر عنهم . وبالتالى لم تكن هناك حاجة بحكام غرب أوروبا وبابوية روما ـــ المنشغلين عن ركائزهم فى الشرق بخلافاتهم الخاصة ـــ إلى اتباع نفس الأساليب . فقد كانت لغة السيف هى السائدة وقتها .

إلا أن شعور القوى الصليبية بدنو الخطر الإسلامى ممثلا فى شخص صلاح الدين موحد الجبهة الإسلامية ضدها ، وفى الوقت الذى لم يكن فى مقدور أى من حكام غرب أوروبا أو رؤساء كنيسة روما أن يقدم المساعدة المباشرة لفرنج الشام ـــ هذا الشعور ـــ دفع بأولى الأمر فى الغرب إلى التفاوض مع بنى أيوب بشأن الصليبيين فى بلاد الشام .

ولأن الحركة الصليبية كانت — فى النظام الأول — مشروعا بابويا ، وإذ تقاعس حكام غرب أوروبا عن مساعدة فرنج الشام فى أحيان كثيرة ، فقد قام رؤساء الكنيسة الغربية — دون عضاضة — بالإتصال بحكام الشرق الأدنى الإسلامى من بنى أيوب . واختلفت مطالب البابوية حسب الحال التى كان عليها صليبيو الشام ، وحسب أحوال عرب أوروبا ، ومدى استعداده لإستخدام القوة المسلحة ضد المسلمين من عدمه . كما اختلفت أيضا ردود السلاطين الأيوبيين على مطالب البابوية وفقا للظروف والإعتبارات المحيطة .

وأول ما نصل إليه من نتائج هذه الإتصالات أنه فى كل الأحوال كانت البابوية هى البادئة بالتفاوض ، وفى كل الأحوال أيضا كان هدفها مناوئة بنى أيوب حتى تتمكن هى من دفع الغرب الأوروبى إلى القيام بحملات صليبية إلى الشرق .

وحرص بنى أيوب منذ عهد صلاح الدين وحتى نهاية دولتهم على بناء علاقاتهم الدبلوماسية برؤساء كنيسة روما — السبب الأول فى الوجود الصليبى فى ديار الإسلام — داخل نطاق اختصاصاتهم لذا كان مصير المراسلات والوثائق المتبادلة بين الطرفين هو صفحات الأرشيفات الأوروبية دون أرشيفات ديوان إنشاء الدولة الأيوبية أو صفحات أعمال مؤرخيها أو من تبعهم من مؤرخى المماليك .

وكان من الطبيعى أن يكون صلاح الدين هو أول من تتفاوض معه البابوية بشأن فرنج الشام . فقد عزل الرجل الإمارات الصليبية فى بلاد الشام برا وبحرا ، وضاق عليها حصاره فى الوقت الذى مزقتها فيه الخلافات الداخلية ، وعانت من النقص فى المواد البشرية والمالية ، بينما اكتفت سجونه بأسراه من الصليبيين . فحدد البابا لوكيوس الثالث — كما حدد سلفه ألكسندر الثالث — طلبه من صلاح الدين — ومن شقيقه ونائبه فى مصر الملك العادل — بالموافقة على إتمام عمليات فداء الأسرى مع فرنج الشام . ومن نفس المنطلق الذى راسل به البابا صلاح الدين وشقيقه كان رد السلطان ونائبه مناوئة للبابا ، مظهرين فيه الموافقة على مطلبه تجنبا لأى رد فعل أوروبى من شأنه أن يعرقل مشروع صلاح الدين الكبير ضد الصليبيين فى بلاد الشام . وفشلت مساعى البابوية لدى صلاح الدين الذى سرعان ما أطلق سجناء عاما من الجهد الصليبى .

ولما لم تستطع الحملتان الصليبيتان الثالثة والرابعة أن تعيد لفرنج الشام ما فقدوه على أيدى صلاح الدين ، وحتى تتمكن البابوية من إيفاد الحملة الصليبية التى تتمكن من إتمام ذلك (الحملة الخامسة) ، فقد كرر البابا إنوسنت الثالث المطلب البابوى ، وزاد عليه دعوته إلى السلطان العادل للموافقة على عقد اتفاق سلام مع صليبيى الشام ، ورد مدينة بيت المقدس إليهم . وكان البابا فى أمل خادع أحاطته به تقارير فرنج الشام التى تفيد بميل أبناء العادل إلى تسليم الأراضى المقدسة إلى البابوية . وكما فشلت مساعى البابوية لدى صلاح الدين ، فقد فشلت أيضا مع خلفه العادل .

ولما لم يكن هناك بد من إيفاد الحملة الصليبية الخامسة ، فقد أصبح العداء مكشوفا بين البابوية والسلطان الأيوبى ، وكان من الطبيعى أن يقلع البابا هنوريوس الثالث — الذى قامت الحملة الخامسة فى عهده — عن مواصلة التفاوض مع بنى أيوب طالما حلت القوة المسلحة ، مرة أخرى محل الدبلوماسية .

ولما كان لما قام بين السلطان الأيوبى الملك الكامل ، وبين الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى من علاقات وطيدة نتجت عن التوافق الفكرى السياسى بينهما ، وعن تشابه رد فعل رعايا كل منهما نحو نتيجة ما توصل إليه العاهلان من اتفاق (اتفاقية يافا ١٢٢٩ م/٦٢٧ هـ) ، ولما كان لهذه العلاقات من أثر فى قيام حاجز سياسى بين البابوية والسلطان الأيوبى ، فقد نأى البابا جريجورى التاسع عن اتباع أسلوب التفاوض مع سلطان مصر بشأن فرنج الشام ، وعهد بذلك إلى حكام الصليبيين فى قبرص وبلاد الشام ، واكتفى هو بالتفاوض مع السلطان الأيوبى بشأن رعايا كنيسة روما من التجار الإيطاليين فى ميناء الأسكندرية ، لإدراكه لعدم جدوى المحاولة مع السلطان الأيوبى صديق الإمبراطور وملك بيت المقدس كما يراه السلطان .

ولما استمرت علاقات فريدريك بخلفاء الكامل ، فقد بقى نفس الحاجز السياسى يعوق البابوية عن النجاح فى التفاوض معهم بشأن فرنج الشام ، الأمر الذى جعل من الفشل مآلا لمحاولة البابا إنوسنت الرابع لمهادنة السلطان الصالح نجم الدين أيوب — حتى تصل الحملة السابعة إلى مصر — بدفعه للسلطان إلى الموافقة على الترفق بالصليبيين فى الشام وعقد اتفاق سلام معهم . وكان نفس

الأمل الخادع الذى دفع بالبابا إينوسنت الثالث إلى التفاوض مع السلطان العادل هو نفسه الذى دفع بإينوسنت الرابع إلى الاتصال بالصالح أيوب .

كما كان مصير محاولة البابا الأخير — الفشل — هو نفس مصير محاولة سلفه . واكتفى إنوسنت الرابع بحث الصالح أيوب على رعاية مدينة بيت المقدس — التى فقدها الصليبيون إلى الأبد — وكنيستها .

وبوصول حملة الملك الفرنسى لويس التاسع إلى مصر — وفشل هذه الحملة — انتهت آخر فرصة توفرت للبابوية للإتصال بحكام الشرق الأدنى الإسلامى لصالح الركائز الأوروبية فى بلاد الشام . فقد واكب فشل حملة لويس تولى السلاطين المماليك للسلطة فى مصر ، ولم يكن بوسع البابا مهدئة هؤلاء بدبلوماسيتها المعهودة ، فى الوقت الذى كان على المماليك مواجهة عدوين فى وقت واحد ، الصليبيين فى قلب الشام ، والتتار على حدوده ، لذا توقفت البابوية عن اتباع الأسلوب الدبلوماسى مع حكام المسلمين بشأن فرنج الشام قبيل نهاية الدولة الأيوبية . ولم يكن أمامها سوى أن تفعل ذلك

الملحق الأول

خطاب السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى البابا لوكيوس الثالث في عام ١١٨٣ م/٥٧٨ هـ نقلا عن :

Radulf de Decito, Ymagines Historiarum, vol. 2, p. 25.

النص اللاتيني

"Rex Salahadinus Omnium regum Orientalium potentissimus domino papae.

Praesentata fuit nobis cartula vestra, quoniam nos scimus et credimus quod sitis in majori officio de hoc mondo, et scimus quod Deus vobis tantam gratiam dederit ut sedeatis in tanta magnitudine. Scimus autem quod omnes Christiani vobis obediunt, et vos pertimescunt. Haec cartula nobis data et praesentata fuit per manum Oliveri Vitalis vestri legati, et ante nos in secreta camera venire fecimus, et quicquid sibi placuit dicere ex vestra parte diligenter audivimus: et vestra cartula per omnia placuit nobis, et eam accepimus bono animo et alaeri vultu, et cognovimus magnum amorem quem apud nos habetis. Et quicquid vestra cartula et praedictus legatus locutus fuit de pace habere cum omnibus christianis et ut omnes captivos dimitteremus, et Christiani qui sub jugo nostro sunt dimittant omnes nostros captivos, et nos omnes captivos Christianos quos habemus vestra benignitate dimitteremus. Notum sit vestrae magnitudini quod Christiani qui a nobis detenti sunt, sunt gentiles et nobiles viri; ac milites nostri, qui a Christianis detenti sunt, sunt rustici et minimi atque vilissimi homines; et si placet vobis, nos appreciabimus captivos nostros quos habemus, et Christiani apprecient sous, et quae pars minus habuerit restituetur ei ab altera. Deus scit quod quando vestras Cartulas et Legatos a vestra magnitudine transmissos vidimus, per omnia gavisi sumus. Caetera secretiora praefato Olivero Commisimus, in quem multum confidimus, et valde super his bonam fidem eum habere cognovimus. Unde pro certo habeatis quod quicquid cum vobis ipse tractaverit, de mandato nostro et bona voluntate procedit".

الترجمة العربية

من الملك صلاح الدين ، أقوى ملوك الشرق أجمعين ، إلى فخامة البابا . تسلمنا رسالتكم . وإننا على علم وثقة بأنكم في قلق شديد بشأن هذا العام ، ونعلم أن الله قد حباكم بفضل كبير إذ تبوأتم هذا المركز الكبير . ونعلم أن جميع المسيحيين يدينون لكم بالطاعة ، ويرهبون جانبكم . وقد تسلمنا رسالتكم من مبعوثكم أوليفر فيتاليس ، وقد استدعيناه إلى مجلس سر ، وسمعنا منه كل ما أسعدنا من جانبكم وقد سرتنا رسالتكم بكل ما جاء فيها . وتلقيناها بقلب منشرح ونفس راضية . وعلمنا عظيم تقديركم لنا . وبما جاء في رسالتكم ، وبما قاله مبعوثكم ، وقفنا على رغبتكم في أن نعقد معاهدة سلام مع المسيحيين[1] جميعا ، وأن نتبادل معهم كل الأسرى فنطلق المسيحيون سراح جميع أسرانا ، ونحن بدورنا سوف نطلق سراح أسراهم تلبية لرغبتكم . وليكن معلوما لفخامتكم أن المسيحيين الذين في أسرنا هم من طبقة النبلاء ، وأن جنودنا الذين في أسر المسيحيين هم من طبقة المزارعين ومن أبسط الناس حالا ، وإذا ارتضيتم ، فإننا سوف نقدر قيمة أسرانا ، وليقدر المسيحيون قيمة أسراهم ، وعلى الفريق الذي يكون بحوزته أسرى أقل قيمة ، أن يعيد إلى الفريق الآخر ما يساوي قيمة أسراه . ويعلم الله كم شعرنا بالغبطة حين طالعنا رسالتكم ، واستقبلنا سفراءكم . وقد عهدنا إلى أوليفر بأمور أكثر سرية ، مع علمنا بمدى إخلاصه بشأنها ، ونحن نثق فيه ثقة كبيرة . ومن ثم ، فلتكونوا على يقين من أن ما ينقله شخصيا إليكم ، فإنه صادر منا وبإرادة طيبة .

---

(١) المقصود بهم الصليبيون .

الملحق الثانى

خطاب الملك العادل سيف الدين شقيق صلاح الدين ونائبه فى مصر ، إلى البابا لوكيوس الثالث فى أول أبريل ١١٨٣ م/٥ ذى الحجة ٥٧٨ هـ ، نقلا عن :

Radulf de Diceto, Ymagines Historiarum, vol. 2, pp. 25-27.

النص اللاتينى

"Gratia universali Christianorum papae, excellentiori domino totius Christianitatis, cujus ditioni omnis Christianitas est subdita, a rege justitiae Sisdin, domino totius multitudinis Sarracenorum, haec carta dirigitur. In nomine Domini piissimi et misericordissimi, recepimus litteras vestras, per manus nuncii vestri Jani Danduli, quem nobis jussimus praesentari, et cum honoravimus, et diligenter litteras vestras inspeximus, et verba quae ex parte vestra nobis legatus vester retulit attentius intelleximus; ex eujus dictis accepimus vestrae voluntatis existere modis omnibus observare, quae cum beatae memoriae praedecessore vestro Alexandro Firmiter stabilivimus super negotio inter Christianos et Sarracenos ad redemptionem omnium captivorum quos in nostra servari fecimus captivitate. In litteris vestris vidimus contineri, quod omnis vobis Christianitas obediret, et nemo audeat vestris contraire praeceptis; Cognoscentes voluntatem vestram, quod praesens negotium circa dominum et fratrem meum debeam promovere, regem victoriosissimum, servatorem suae promissionis et auctorem justitiae Salahadin, dominum legis et omnium sarracenorum, suscitatorem legis sarracenorum, cujus dies Deus augeat et potentiam magnificet, et ut compositionem juxta petitionem vestram studeam perficere et executioni mandare. Cum pervenit ad nos legatus vester cum litteris vestris, erat frater noster rex victoriosissimus in partibus Tyri, ubi successit ei contra hostes suos votum suum, cui Deus tantam his temporibus victoriam contulit, quod omnem terram a Damasco usque Ninivem subjugavit; Cui omnes vicinitate loci propinqui, et sarracenorum universae potestates obediunt; cujus expeditioni volento Dec adhaeserunt infinitae nationum multitudines ut serviant ei; qui tanta manu hostes persequitur quanta nullus praedecessorum suorum inimicos suos voluit impugnare; nobis vestram aperuit voluntatem, et preces vestras nobis optulit, quibus

incontinenti curavimus obtemperare, et quicquid petitioni vestrae expedial vestro intuitu circa fratrem nostrum studuimus obtinere, et transmissa vobis in fratre nostro responsione accepimus rege victorum, cujus potentiam Deus exaltet: quod si Christiani qui habitant in Jerosolima cum rege suo, et in omni parte Tyri; vestris obedierint praeceptis cum universa Christianitate, et ordinationem inter nos factam servaverint secundum voluntatem vestram pro facienda pace, et pro dimittendis captivis qui servantun in carceribus nostris compediti, et nos observare promittimus ea omnia quae ad istam faciendam pacem a nobis postulatis. Sed si praefati Christiani de partibus Tyri et Jerusalem vestris praeceptis non obedierint, nos immunes erimus a culpa, et quod pacem non servaverimus, nobis deinceps non poterit imputari.

Scripta fuit haec carta pridie kalendas Aprilis anno Machometi D LXX Octavo. Gratias agimus Dea soli, et Machometo prophetae magno".

الترجمة العربية

إلى صاحب السعادة بابا العالم المسيحي ، الذى تخضع المسيحية جمعاء لسلطانه : من الملك العادل سيف الدين ، سيد جميع المسلمين .

بسم الله الرحمن الرحيم . لقد تسلمنا رسالتكم من مبعوثكم جان داندولو الذى أمرنا بمثوله أمامنا ، وأكرمنا وفادته ، وقرأنا الرسالة بكل عناية ، ووعينا ما أبلغنا به مبعوثكم على لسانكم من طلبات ، ومن أقواله قبلنا رغبتكم فى الاهتمام باتخاذ كل الإجراءات ، التى وثقنا تمام الثقة فى رغبة سلفكم طيب الذكر (البابا) ألكسندر (الثالث) ، فى اتخاذها بشأن التفاوض مع المسيحيين[1] ، بخصوص فداء كل أسراهم الذين فى حوزتنا . ولقد لمسنا فى خطابكم تأكيدكم من طاعة كل المسيحيين لما جاء فيه من مبادرات ، وأنه ليس لأحد منهم أن يتجاسر على مخالفة توجيهاتكم . وإذ علمنا رغبتكم فى أن أستحث مولاى وشقيقى ، الملك الظافر ، الحافظ لعهده وحامى العدالة صلاح الدين ، سيد البلاد ، وسيد المسلمين جميعا ناصر الإسلام ، أطال الله عمره ، وبارك سلطانه ، بشأن إتمام ذلك التفاوض ، وأن أهتم بتحقيق رغبتكم بإنجاز تماسكم ، فحين حضر سفيركم حاملا أكتابكم إلينا ، كان أخى الملك الظافر فى ربوع صور[2] ، ينجز هناك ندبه ضد أعدائه ، وقد حباه الله آنذاك بالنصر العظيم ، إذ أخضع البلاد كلها من دمشق وحتى نيفين[3] ، وكل المناطق المحيطة بها ، ودان له ملوك الإسلام بالطاعة ، فإذ علموا بحملته أطاعوا الله ، وأمدوه[4] بحشود هائلة من رعاياهم لتعمل تحت إمرته ، فسار بقواته العظيمة يطارد الأعداء ، واستطاع أن يقهر خصومه ، الأمر الذى لم يستطع إنجازه أحد من السابقين . ولقد عرض علينا (السلطان) رغبتكم التى حرصنا على تحقيقها . وحسب رغبتكم ، اهتممنا بتحقيق ذلك لدى شقيقنا (السلطان) . وننقل إليكم على لسان شقيقنا ملك

---

(١) المقصود بهم صليبيو الشام .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٢٦٣

(٣) وهى اسم : بليدة على ساحل البحر شرق جبل صهيون . انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ٥ ، بيروت ١٩٧٧ م ، جـ ١ ، ص ٣٧١ .

(٤) المقصود به صلاح الدين الأيوبى .

الظافرين ، بارك الله في سلطانه : أنه لو أطاع ملك ومسيحيو (مملكة) بيت المقدس ، ومسيحيو صور ، وجميع المسيحيين ، توجيهاتكم وحافظوا على حسن الجوار معنا ، فإننا سنهتم بتحقيق رغبتكم الثانية بشأن إبرام اتفاقية سلام ، وإتمام عمليات فداء الأسرى (الصليبيين) القابعين في سجوننا ، ونسمح لأنفسنا بتدارس كل ما تقدمتم به من التماسات لعقد اتفاقية السلام . أما إذ لم يمتثل المسيحيون المذكورون في ربوع صور وفي (مملكة) بيت المقدس لتوجيهاتكم فلسوف نكون في حل من الخطأ ، لأننا لن نعمل على حفظ السلام معهم ، ولن يكون في مقدورنا التفكير في ذلك .

حرر هذا الخطاب في أول أبريل ١١٨٣ م/الخامس من ذي الحجة ٥٧٨ هـ .

والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على رسوله محمد .

الملحق الثالث

خطاب البابا إنوسنت الثالث إلى السلطان العادل سيف الدين في ٦ مايو ١٢١٣ م/١٣ ذي الحجة ٦٠٩ هـ . نقلا عن :

Ryccardus de San. Germano, Chronicon, inMuratori, R.I.S., vol. VII, Cols. 986-988.

النص اللاتيني

"Innocentius, nobili viro Sephadino Soldano Demasci, Babyloniae timorem Trini nominis, amorem. Daniele Propheto testant didicimus, quod est Deus in Caelo, qui revelat mysteria, mutat tempora, transfert Regna, cui voluerit dabit illud. Hoc autem evidenter ostendit, quando Jerusalem, fines ejus tradi permisit in manus fratris tui, non tam propter ejus virtutem, quam propter offensam Populi, Christiani, Deum ipsum ad iracundiam provocantis, magnitudinem tuam humiliter obsecramus, quatenus ne propter violentam detentionem praefatae terrae plus adhuc effundatur humani sanguinis, quam hactenus est effusus: restituas eam nobis, usus consilio; de qua forte detentione plus tibi diffcultatis, quam utilitatis accrescit, dimissis utringue captivis, quiescamus a mutuis impugnationum offensis, ita quod apud te non sit deterior conditio gentis nostra, quam apud nos est conditio gentis ruae. Latores praesentium ad tuam praesentiam destinatus, rogamus benigne recipias, dignum eis responsum tribuens cum effectu. Datum Laterani 6 Kalen. Maji Pontificatus nostri anno 16".

الترجمة العربية

(البابا) إنوسنت (الثالث) ، يبعث بمعاني الود والتبجيل باسم الثالوث إلى الرجل النبيل سيف الدين[1] سلطان دمشق[2] ومصر :

لقد علمنا بشهادة النبي دانيال أن الله في السماء هو الذي يكشف الأسرار ، ويبدّل الأزمنة ، والممالك ، ولكنه يهب لمُلك من يشاء[3] لكنه يظهر ذلك بشكل واضح عندما سمح باستسلام (مملكة) بيت المقدس لأخيك[4] ليس بسبب فضيلته بقدر ما هو بسبب خطيئة الشعب المسيحي الذي استثار الرب ذاته ، فحل غضبه عليه . (ونحن) نتوسل إلى عظمتكم متواضعين ، ألا يسيل مزيد من الدماء التي ظلت سالت بغزارة في الأراضي السابقة الذكر ، بسبب أعمال العنف التي تحدث هناك :

وعين الصواب أن ترد الينا الأراضي المقدسة ، وإذا رفضت ذلك فسوف تواجه المزيد من الصعاب دون أن تجني أية فائدة . لذا ، بعد تبادل الأسرى بين كل الطرفين فلنستريح سويا من عناء القتال ، ولن تكون حالة شعبنا عندك أسوأ من حالة رعاياك عندنا . ولقد أرسلنا مبعوثينا إلى فخامتكم ، ونسألكم أن تحسنوا استقبالهم ، وأن تردوا عليهم بما يستحقون من تكريم .

اللاتيران ، في ٦ مايو من العام السادس عشر من بابويتنا[5] .

---

(١) عرف الملك العادل سيف الدين شقيق صلاح الدين بخلفه في حكم الدولة الأيوبية في مصر . اللاتينيه المعاصرة بهذا الأسم وبرد ذكره في هذه المصادر في عدة أشكال منها Sisidin و Sephadin

(٢) تولى العادل حكم دمشق بن وفاة شقيقه عيسى . انظر ما سبق ، ص ٢٧٤ ، حاشية (٣) .

(٣) « أجاب دانيال وقال : ليكن اسم الله مباركا من الأزل وإلى الأبد لأن له الحكمة والجبروت معا . وهو يغير الأوقات والأزمنة يعزل ملوكا ويقيم ملوكا . يعطي الحكماء حكمة وعلم العارفين فهما » . انظر العهد القديم . سفر دانيال . (٢ ، ٢ــ٢٢)

(٤) المقصود به السلطان صلاح الدين الأيوبي .

(٥) ٦ مايو ١٢١٣ م/١٣ ذي الحجة ٦٠٩ هـ

الملحق الرابع

خطاب السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى البابا إنوسنت الرابع فى ٤ يونيو ١٢٤٥ م/ ٧ محرم ٦٤٣ هـ . نقلا عن :

C. Rodenberg, Epistolae Saeculi xiii[e] regestis pontificum romanorum selectae, vols. 3, Berlin, 1883-1894, in M.G.H., vol. 2, no. 132, pp. 86-88.

النص اللاتينى

"Presentie pape., universalis loquele Christianorum, manu tenentis adoratores crucis, iudictis populi Christiani, ductoris filiorum baptismatis, summi pontificis Christianorum-confirmet eum Deus et det sibi felicitatem-a soldano, potentissimo, regnante super colla nationum, continente duas virtutes, gladii et calami, possidente duo precellentia, scilicet doctrinam et iudicium, rege duorum marium, dominatore Austri et septemtrionis, rege regionis Egypti et Syrie et Mesopotamie, rege salech Belfei Ayob, Filio soldani Hamel Helmevaffar Mehamed, Filii soldani regis Hadel Bobecre, Filli Ayob, cuius regnum Deus diligit.

In nomine Dei misericordis et miseratoris.

Presentate sunt scripture pape. et respeximus dictas scripturas studiose, et intelleximus capitula, que in eis inserta erant, et cerum continentia nobis placuit, et delectatus est auditus noster in relatu eorum. Et nuntius venit ad nos, quem misit sanctus papa, et ipsum prevenimus cum honore et dilectione cum devotione et reverentia, ipsumque convocavimus ad conspectum nostrum, sibi inclinantes intendimus a urem verbis eius.

Et de hoc, quod dicitis voc desidorare tranquillitatem et quietem et habere materiam convocandi populus ad pacem, similiter nos desideramus, nec volumus contraire, et hoc semper voluimus et desideravimus. Sed papa, quem Deus confirmet, scit, quod inter nos et imperatorem iamdudum fuit familiaritas et dilectio mutua et Concordia perfecta a tempore soldani patris nostri, quem Deus ponat in claritate, et inter nos et imperatorem predictum, est, sicut scitis. Unde non licet nobis aliqua componere cum Christianis, nisi prius habuerimus super hiis ipsius consilium et assensum. Et nos scripsimus nuntio nostro, qui est in curia imperatoris, pro causis quas detulit nuntius pape, nuntiantes ei capitula et proposito

[illegible] vester ipse nuntius noster veniet ad presentiam vestram, et loquetur vobis et renuntiabit nobis, et postquam retulerit facemus quod [illegible] [illegible]

Nec discrepabimus ab eo, quod videbitur nobis universis, ita quod possumus habere mentum a Deo

[illegible] vobis annuntiamus, et bonum amplabitur in posterum, Deo dante.

Hec fuit in septima die mensis Maharram.

Laus Deo soli et benedictio eius super dominum nostrum Mahumetum et super gentis ipsius. Ipse sit pax nostra".

الترجمة العربية

إلى حضرة البابا ، عاهل المسيحيين أجمعين ، الذى يخضع له كل المؤمنين بالصليب ، قاضى الشعب المسيحى ، وقائد أبناء المعمودية ، كاهن المسيحيين الأعظم . قوّاه الله وأسعده : من السلطان المقتدر الذى يحكم الأمم ، ويجمع بين الشجاعتين ، شجاعة السيف وشجاعة القلم ، وبين فضيلة العلم وفضيلة الحكم . ملك البحرين ، سيد الشمال والجنوب ، ملك مصر والشام والعراق ، الملك الصالح نجم الدين أيوب إبن السلطان الملك الكامل محمد إبن السلطان الملك العادل أبى بكر إبن أيوب . حفظ الله مملكته .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلتنا رسائل البابا[1] ، واطّلعنا عليها ، وفهمنا بنودها وفحواها . ولقد سعدنا ، وسرت أسماعنا بما جاء فيها . كما وصل إلينا أيضا مبعوث حضرة البابا واستقبلناه بالحفاوة والتكريم والاهتمام . وأمرنا بمثوله أمامنا ، وأولياه أسماعنا وخصوص قولكم ، بأنكم ترغبون فى أن تحل السكينة والسلام والاطمئنان ، ووجود أساس للتفاهم بين الشعوب من أجل السلام فنحن بالمثل نود ذلك ، ولا نميل إلى رفض رغبتكم التى تتفق وما نرغب فيه . ولكن البابا ، أعانه الله ، يعلم أن بيننا وبين الإمبراطور (فريدريك الثانى) من أواصر الصداقة والاحترام المتبادل والوئام ، ما يرجع إلى عهد أبى السلطان (الملك الكامل) ، نزله الله منزلا حسنا ، ولا يزال بيننا وبين الإمبراطور ما تعلمونه . ومن ثمّ ، فليس لنا أن نعقد أى اتفاق مع المسيحيين[2] دون أخذ رأيه وموافقته أولا . ولقد كتبنا إلى مبعوثنا لدى الإمبراطور بشأن ما حمله إلينا مبعوثكم من مقترحات ، كى يطلع الإمبراطور على بنود هذه المقترحات . وسوف يتوجه مبعوثنا ذاته إلى فخامتكم ، ويتحدث إليكم ، ثم يعود إلينا ليطلعنا على ردكم . وسوف يكون تصرفنا بموجب فحوى ذلك الرد . وسوف لا نعارض تنفيذ ما فيه الخير للجميع ، وما الخير إلا من عند الله .

---

(١) بعث البابا بمضمون لوابع بعدة خطابات إلى الصالح نجم الدين أيوب ، كان أحدها هذا الخطاب انظر ما سبق ، ص ٢٩٢ .

(٢) المقصود بهم القوى الصليبية فى بلاد الشام .

هذه رسالتنا إليكم ، وبإذن الله يعم خير .

حرر هذا الخطاب في سابع من أجره

والحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله .

بيان المختصرات
الوارد ذكرها فى حواشى البحث

A.L.	-	Les Archives de L'Orient Latin.
Ann. T.S.		Annales de Terre Sainte.
B.	-	Byzantion.
B.I.H.R.	-	Bulletin of the institute of Historical Research.
E.H.R.	-	English Historical Review.
M.G.H.ss.	-	Monumenta Germaniae Historica Scriptores
P.L.	-	Patrologia Latina.
R.H.C. H.Occ.	-	Recueil des Historiens des Croisades Historiens Occidentaux.
R.H.C.-Doc.Arm.		Recueil des Historiens des Croisades Documents Armeniens.
R.I.S.	-	Rerum Italicarum Scriptores.
R.S.	-	Rolls Series.
S.V	-	Studi Venziani.

أولا : المصادر الأصلية
(أ) المخطوطات والمصورات العربية

ـ الصفدى (عاش فى القرن ٦ هـ/١٤ م) محمد بن عبد الله :
« نزهة المالك والمسلوك فى مختصر سيرة من ولى مصر من الملوك » مكتبة المتحف البريطانى رقم ٢٣٣٢٦ .

ـ العسقلانى (ت ٨٧٦ هـ/ ١٤٧١ م) أبو البركات عز الدين أحمد ابن برهيه بن نصرة الله الكنانى العسقلانى المصرى :
« شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب » مكتبة المتحف البريطانى ، رقم ٥٤٤٩ .

ـ العينى (ت ٨٥٥هـ ١٤٥١م) بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى:
« عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » ، جـ ٢٣ ، دار الكتب المصرية ، رقم ٨٢٠٣ ح .

ـ النويرى الكندى (ت ٧٣٢٢ هـ ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ابن محمد :
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، ٥٥ مجلدا ، دار الكتب المصرية ، رقم ٦٤٩ معارف عامة « تصوير شمسى » .

(ب) المصادر العربية المنشورة

ـ ابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٣ م) ابو الحسن بن أبى الكرم الملقب عز الدين : « الكامل فى التاريخ » ، جـ ١٢ ، القاهرة ، المطبعة الأزهرية ، ١٣٠١ هـ .

ـ ابن أيبك الدوادارى (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣٣ م) أبو بكر بن عبد الله : « الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب » ، وهو الجزء السابع من كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م .

ـ ابن الجوزى (سبط) (ت ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م) ابو المظفر شمس الدين : « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » ، جـ ٨ فى ٣ أقسام ، حيدر آباد ، ١٣٧٠ هـ/١٩٥١ م .

ـ ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ/١٢٣٥ـ١٢٣٦ م) بهاء الدين أبو المحاسن يوسف رافع بن تميم :
« النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ م .

ـ ابن العديم (ت ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م) كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة :
« زبدة الحلب من تاريخ حلب » ، جـ ٣ ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٩٥١ م .

ـ ابن العميد (ت ٦٧٢ هـ/١٢٧٤ م) جرجس أبو عبد الله بن أبى اليسر الملقب بالمكين :
« تاريخه » نشره كلود كاهن تحت عنوان « تاريخ الأيوبيين » أنظر :
Cahen (Claud), La Chronique des Ayyoubides d'Al-Makin B. Al Amid, in Bulletin des Etudes Orientale, vol. 15, 1955-57, pp. 109-184.

ـ بن مظفر (عاش فى القرن ٧ هـ/١٣ م) أبو الفضائل الحموى :
« التاريخ المنصورى » وهو تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان ، تحقيق أبو العيد دودو ، دمشق ١٩٨١ م .

ـ ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم :
« مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ، جـ ٥ ، جـ ١ ، ٣،٢ ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٠ م ، جـ ٤ ، ٥ ، تحقيق الدكتور حسنين ربيع . القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٧ م .

ـ أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان شهاب الدين :

ـ « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » ، جـ ٢ فى مجلد واحد ، القاهرة ، مطبعة وادى النيل ، ١٢٨٧ـ١٢٨٨ ك .

ـ « تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين » نشره السيد عزت العطار ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ م .

ـ أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م) الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل :
« المختصر فى أخبار البشر » ، جـ ٤ ، القاهرة ، المطبعة الحسينية ، ١٣٢٥ هـ .

ـ أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى :
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، جـ ٩ ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٨ـ١٣٦١ هـ/١٩٢٩ـ١٩٤٢ م .

ـ الأصفهانى (ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١ م) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد :
ـ « الفتح القسى فى الفتح القدسى » تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة ١٩٦٥ م .

ـ « البرق الشامى » ، جـ ٣ ، جـ ٥ ، تحقيق مصطفى الحيارى ، عمان ١٩٨٧ م .

ـــ المقريزى (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٢ م) تقى الدين ابو العباس أحمد :
« السلوك لمعرفة دول الملوك » ، الجزء الأول فى ثلاثة أقسام ، نشره محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ م ـــ ١٩٤٢ م .

ـــ النسوى (ت ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م) شهاب الدين محمد بن عبد الواحد المنشىء النسوى :
« سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى » ، نشره حافظ حمدى ، القاهرة ١٩٥٣ م .

ـــ ياقوت الرومى الحموى (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الملقب شهاب الدين :
« معجم البلدان » ، جـ ٤ ، وفهرست ، ليبزج ١٨٦٦ـــ١٨٧٠ م .

(جـ) المصادر الأجنبية

- Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, in R.H.C.-H.Occ., IV, (pp. 265-713).
- Albéric de Trois Fontaines, Chronicon, in M.G.H.ss., Vol. XXIII.
- Amadi, Chroniques d'Cypre d'Amadi et de Strambaldi, ed., R. de Mas Latrie, 2 Tomes, Paris, 1891-1893.
- Annales de Burton, ed. H.R. Laurd, in Annales Monastici, (R.S.36), London, 1864.
- Annales de Salimbene, in M.G.H.ss., Vol. XXXII.
- Annales de Terre Sainte (1095-1291), Publiees par R. Rohricht et G. Raynoud, in A.O.L., t. II, (pp. 427-267).
- Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum.

وقد رجعنا إلى الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت اسم « أعمال الفرنج وحجاج بيت المقدس » ، ترجمة الدكتور حسن حبشي . القاهرة ١٩٥٨ م .

-Arnold of Lubeck, Chronica Slavorum, in M.G.H.ss., in Ussum Scholarum, Hannover, 1868.

-Benedict of Peter brough, Gesta Regis Henrici Secundi, ed. W. Stubbs, 2 vols, in R.S., London, 1867.

-Chronica Regia Coloniensis, in M.G.H.ss., in Usum Scolarum, Hanover, 1880.

-Chronica Regia Coloniensis, in M.G.H.ss., Vol. XXVII.

-De Expognatione Terrae Sanctae Par Saladinum Libellus, ed. W. Stubbs, in R.S., London, 1871

-Epistolae Saecuh XIII, E Regestis Pontificum Romanorum, ed. Carolus Rodenberg, 2 Vols, in M.G.H.ss., Berlin, 1887.

-Eracles, L'Estoire d'Eracles, empereur et la conqueste de la Terre d'Outremer, in R.H.C -H.Occ., Vol., I, II.

-Ernoul, Chronique de Ernoul et de Bernard le Trésorier, ed. L. de Mas Latrié, Paris, 1871

Gregory IX, Pope, Les Registres, ed. L. Auvray (Bibliothèque des Ecoles francais d'Athénes et de Rome, (sér. 2) 3 tomes. Paris. 1896-1955.

-Historia Diplomatica Friderici Secundi, (ed. J.L.A. Huillard-Bréholles), 7 Vols, Paris, 1851-1862.

-Innocent III, Pope, Regesta, in P.L. Vol. 214-216.

-Innocent, IV, Pope, Registres, ed. Berger, (Bibliothéque des Ecols Francais d'Athénes et de Rome. (sér. 2) 4 tomes, Paris 1884-1991

-Itinerarium Peregrinorum et gesta regis Ricardi, ed. W. Stubbs. in R.S., London 1865.

-Les Gestes des Chiprois, in R.H.C.-Doc. Arm.

-Matthew Paris, Chronica Majora. ed. H.R. Laurd, in R.S., 7 Vols, London, 1872-1882.

-Radulph de Diceto, Ymagines Historiarum, 2 vols, ed. W.S. Stubbs. in R.S., London, 1876.

-Raimond d'Agiles, Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem, in R.H.C.-H.Occ., Vol III.

-Radulf Niger, Cronica Universali, in M.G.H.ss., Vol. XXVII.

-Regesta Pontificum Romanorum, ed. C.A.S. Potthast, 2 Vols, Berlin, 1873-1875.

-Regesta Regni Hierosolymitani, ed. R. Rohricht, 2 Vols, Insbruck, 1893-1904.

-Ryccardus de San. Germano, Chronicon (ed. L.A. Moratorius), in R.I.S., Vol. VII.

-Rothelin, Continuation de Guilliaum de Tyr de 1229 à 126L, dite du manuscrit de Rothelin, in R.H.C.-H.Occ., Vol. 2.

-Vincent de Beauvais, Speculum Historiale, Graz-Austria, 1965

-William of Tripoli, Tractatus de status Saracenorum, ed. Hans Prutz, in Kulturgeschichte de Kreuzzuge, Berlin, 1883.

-William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the sea, 2 Vols, trans. and annotated by Emily Babcock and A.C. Krey, New York 1943.

ثانيا : المراجع الثانوية

(أ) المراجع العربية

أسامة زكى زيد (الدكتور) :

« الخوارزمية ودورهم فى الصرع الصليبى الإسلامى فى عصر بنى أيوب » ، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، العدد ٣٠ ، الأسكندرية ١٩٨٢ م .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

ـ « العدوان الصليبى على بلاد الشام » ، الأسكندرية ١٩٨٤ م .

ـ « إدراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى » ، الاسكندرية ١٩٨٨ م .

حسن عبد الوهاب (الدكتور) :

« تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة » ، الأسكندرية ١٩٨٩ م .

إحسين محمد عطية (الدكتور) :

ـ « إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالدول الإسلامية المجاورة » ، ١٠٩٨ـ١١٧١ م/٤٩٢ـ٥٦٧ هـ ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، الأسكندرية ١٩٨١ م .

ـ « إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون » ، ١١٧١ـ١٢٦٨ م/٥٦٧ـ٦٦٦ هـ ، الأسكندرية ١٩٨٩ م .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) :

ـ « الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى » ، جزءان ، القاهرة ١٩٧٥ م .

ـ « الإمبراطور فريدريك الثانى والشرق العربى » ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٧ م

محمد ماهر حمادة :

« لوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية » ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨٥ م .

محمد محمد مرسى الشيخ (الدكتور) :

« جهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها » ، ١٠٩٧ــ١١٤٤ م ، الأسكندرية ١٩٧١ م .

محمد مختار :

« كتاب التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية » ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣١١ م .

(ب) المراجع الأجنبية

-Antonia (G.), Historical Writing in England C. 550 to C. 1307, 2 Vols, London, 1974.

Brundage (J.), The Crusades: A Documentary Survey, Wisconsin, 1976.

-Cahen (C.), La Syrie du Nord a l'Epoque des Croisades et la Principaute Franque d'Antioche, Paris, 1940.

-Davis (R.H.G.), A History of Medieval Europe from Constantine to St. Louis, London, 1957.

-Edbury (P.W.), Feudal Obligation in the Latin East, in B., Vol. 97.

- The Ibelins Counts of Jaffa, in E.H.R., Vol. 89, 1974.

-Gill (J.), Franks, Venetians and Pope Innocent III, in S.V., 1970.

-Green Way (D.E.), The Succession to Ralph de Diceto Dean of St. Paul's, in BIHR. Vol. 39, 1966.

-Grousset (R.), Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem, 3 tomes, Paris, 1934-36.

-Hamilton (B.), The Latin Chruch in the Crusader States, The Secular Church, London, 1980.

-Hill (G.A.), A History of Cyprus, 3 Vols, Cambridge, 1948

-Holt (P.M.), The Age of the Crusades, London, 1986.

-La Monte (J.L.), The World of the Middle Ages, New York, 1949.
- From Crusading Kingdom to Commercial Colony, in J.P.I.A.S.A., Vol. 3, 1944-45.

-Louise and J. Riley Smith, The Crusades, Idea and Reality, in Documents of Medieval History, London, 1981.

Mayer (H.), The Crusades, English trans. by John Gillingham, Oxford, 1972.

-Meynert (P.), An Unknown Letter of Hulgu, Il Khan of Persia to King Louis IX of France, in Viator, Vol. II, 1980

Michaud (J.F.), Histoire de Croisades, Paris, 1970.

-Prestwich (J.O.), Richard Coeur de Lion: Rex Bellicosus. (Ricardo Cour di leone nella storiae nella legenda). (- Academia nazionale dei lincei no. 253), Rome, 1981.

-Prutz (H.), Kulturgeschicte der Kreuzzuge, Berlin 1883.

-Richard (J.),
- La Polotique Orientale de Saint Louis, La Croisade de 1248, Paris, 1976.

- The Latin Kingdom of Jerusalem, trans. by J. Sheniley, 2 Vols, Oxford, 1979.

-Runciman (S.), A History of the Crusades, 3 Vols, Cambridge, 1968.

-Smith (J.R.), Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem, 1174-1277, London, 1973.

-Throop (P.A.), Criticism of Papal crusading policy in Old French and Provencal, in Speculum, Vol. 13.

-Vaughan (R.), Matthew, Paris, Cambridge, 1958.